

جدليّة الحرّية والعبوديّة

دراسة قرآنيّة في الدلالات والأبعاد

جلال الدين الفارسي

تعريب: د. دلال عباس


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
mcamenquraish.blogspot.com

جلال الدين الفارسي

ولد في مشهد عام ١٩٣٣ للميلاد، تلقى علومه الأوليّة فيها، جمع بين العمل العلمي والسياسي.

كان لفترة من الزمن عضواً في المجلس الأعلى للثورة الثقافية، كما كان عضوا في مجلس خبراء القيادة، وعضوا في المجلس النيابي. متقنٌ للّغتين العربية والفارسية.

نشرت له أعمال علمية عدة، منها:

- ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية.
- الغدير، ترجمة لموسوعة الغدير للأميني في عدة مجلدات.
- تعالي شناسي، مجلدان.
- آزادي وسير تقرب خدا. (هذا الكتاب)
- انقلاب اسلامي وسازماندهي اجتماعي.
- فرهنگ واژههاى انقلاب اسلامى.

جدليّة الحرّيّة والعبوديَّة

دراسة قرآنيَّة في الدلالات والأبعاد

جلال الدين الفارسي

جدليّة الحرّيّة والعبوديَّة

دراسة قرآنيَّة في الدلالات والأبعاد

تعريب

د. دلال عباس



المؤلّف: جلال الدين الفارسي
الكتاب: جدليّة الحرّيّة والعبوديَّة: دراسة قرآنيَّة في الدلالات والأبعاد
تعريب: د. دلال عباس
المراجعة والتقويم: فريق مركز الحضارة
الإخراج: محمد حمدان
تصميم الغلاف: حسين موسى
الطبعة الأولى: بيروت، 2009
ISBN: 978- 9953 538 - 14 - 3

The dialectics of liberty and slavery: a study in The significations and Dimension

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن قناعات واتجاهات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي»



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

Center of civilization
for the development of islamic thought

بناية الصبّاح - شارع السفارات - بئر حسن - بيروت
هاتف: 826233 (9611) - فاكس: 820387 (9611)
info@hadaraweb.com
www.hadaraweb.com

الفهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة المركز

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)﴾ **[سورة البقرة: الآية ٢٦٥].**

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)﴾ **[سورة الأحزاب: الآية ٧٢].**

تكشف هاتان الآيتان عن أنّ الحرّيّة هي الأساس الذي يميّز الإنسان عن غيره من الموجودات التي منّ الله عليها بنعمة الخلق والإيجاد. وهي الأرضيّة التي ينطلق منها الدين والتديّن في توجيه الأوامر والنواهي للإنسان. ومن هنا، لا دين من دون حريّة تعطي للإنسان حقّ اختيار الدين كما حقّ اختيار عدم التديّن. ومن هنا أيضاً، ورد عن عليّ بن أبي طالب (ع) قوله: «**لو كان كذلك [فكرة الجبر] لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله (عز وجل) والنهي منه، وما كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسيء، ولا المسيء أولى بعقوبة المذنب من المحسن. . .**»

وعلي أيّ حال، لو لم يكن بين أيدينا سوى هاتين الآيتين

المشار إليهما أعلاه، لاستطعنا القول بالفم الملآن إنّ الحرّيّة والدّين أمران متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر؛ لأنّ الله يصرّح بأنّ الدّين أمرٌ لا يمكن الإكراه عليه ولا ينبغي؛ ولأنّه سبحانه صوّر تحمّل مسؤوليّة الإنسان لأمانة الخلافة على الأرض بصورة العرض الإلهيّ، والقبول والاستجابة الإنسانية، والإباء من قبل سائر المخلوقات؛ حتّى لو كان ذلك العرض تكوينياً تقتضيه طبيعة الخلق الإلهيّ للإنسان.

ويبدو أن لا ضرورة لمزيد من التأكيد على اهتمام الإسلام بحريّة الإنسان وحفظه لاختياره. ولكنّ الإشكاليّة الأبرز تظهر عندما ندخل في تشريح مفهوم الحرّيّة، وفي جدليّة الربط بينها وبين العبوديّة لله، فهل تعني الحرّيّة نزع كلّ القيود وكسر كلّ الأطواق، أم لا يمكن أن تتحقّق الحرّيّة إلا بالانعتاق الكامل من أسر كل ما سوى الله والتسليم الكامل لإرادته؟! هذا ما يحاول الكاتب جلال الدين الفارسي معالجة مسائله وتقديم الرؤية القرآنيّة حوله.

مركز الحضارة
لتنمية الفكر الإسلامي

الفصل الأول

مفهومُ الحرّيّة وحقيقتُها

في منتصف القرن الثامن عشر، حوالي العام 1748م، وصفَ مونتسكيو الحرّيّة بقوله: «لم تستحوذ أيُّ لفظة من الألفاظ على عقول البشر وأذهانهم، كما استحوذت لفظة الحرّيّة، وما من لفظة استُخدمت مثلها بمعانٍ عديدة. والحرّيّة تعني لبعض الناس أنّ لديهم الخيارَ في خلع من كانوا قد مَحَضوه ثقتهم، ومنحوه الصلاحيات بمجرد أن يُسيء استخدامَ السلطة ويتحوّل إلى حاكم ظالم. وهي بالنسبة إلى آخرين قدرتهم على اختيار مَنْ عليهم إطاعتُه بأنفسهم. ويرى فريق ثالث أن الحرّيّة تعني الحقّ في التسلّح واستخدام القوة قولاً وفعلاً»[1].

وتحت عنوان «ما هي الحرّيّة»، لم يتطرّق مونتسكيو إلّا إلى تصحيح الأفكار العالقة في أذهان الناس حول الحرّيّة السياسية، أو الحرّيّة في المحيط الاجتماعي، ولم يتطرق في كتابه كلّه على الرغم

---

(1) مونتيسكيو، روح القوانين، الكتاب الحادي عشر، الفصل الثاني.

من كِبَرِ حجمه إلّا إلى هذين الموضوعين؛ وتصحيحُه إلى حدٍّ ما مفيدٌ حيث يقول: «إن الحرّيّة السياسية لا تعني أنّ لكل شخص الحقّ في أن يفعل ما يحلو له، وإنما معناها أن على الناس أن يطلبوا ما عليهم أن يطلبوه ويفعلوه، وهم غير مجبَرين على فعل ما ليس مطلوباً إليهم فعلُه»[1].

إلّا أنه على الرغم من رفعة مقامه العلمي عجز عن تحديد «ما يجب أن يطلبه الأفراد وما يجب أن يفعلوه»، ولذا لم يتمكن من تقديم الدليل ـ مستندًا إلى حقيقة سموّ الإنسان وانحطاطه ـ لإبطال ادّعاء القائلين: «إن الحرّيّة السياسيّة معناها أن يفعل الإنسان كلّ ما يجب أن يفعله»، أو ادعاء القائلين: «إن الحرّيّة معناها أن يتسلّحوا وأن يظلموا الآخرين قولاً وفعلاً». علمًا أن القضية الأساسية في بحث الحرّيّة هي التالية: «ما هي الحرّيّة؟ أهي حريّة إنجاز أيّ عمل؟ أو ما هي الظروف الاجتماعية والفرص المتاحة والمقدرة؟»؛ إن ما استطاع أن يجيب عنه في النهاية قوله: «إن الحرّيّة هي أنّ للإنسان الحقَّ أن يفعل ما أباحه ويبيحه له القانون. وأن لا يكون مجبرًا على فعل ما يحظُره القانون»[2].

نحن نعلم ما هو «القانون»، وما هي نتيجة اتّباع القانون. فالقانون ليس سوى أحكام تكليفية وأحكام وضعية، أو هو أوامر الحكام ونواهيهم ـ العامة والثابتة نسبيًا ـ؛ الحكام الذين هم في معظمهم مستكبرون أو مترَفون، ومنشأ أوامرهم ونواهيهم أي القوانين، العلائقُ الاستكبارية الدنيوية الدنيّة. لذا فإن الناس حين يطيعون هذه الأوامرَ والنواهيَ، ويتّبعون الحكّام يفقدون إنسانيتهم،

---

(1) مونتيسكيو، **روح القوانين**، الكتاب الحادي عشر، الفصل الثالث.

(2) المصدر نفسه.

ويتنزّلون إلى مرتبة تدنيهم من مرتبة الحيوانات، أو أدنى من ذلك، وقد عبّر منتقدو الحداثة والمراقبون من أهل الفكر في المجتمع الرأسمالي عن هذا السقوط باسم «المَسخ» أو «الغربة عن الإنسانية».

بنى مونتيسكيو بعد ذلك نظريّتَه على فرضية أن وجود الإنسان يفتقد في تكوينه وبُنيَتِه إلى حقيقة تُدعى الحرّيّة، فكيف بالقول: إنّ هذه الحقيقة تتضمن «قيمةً» هي السير من الأسْر باتجاه الحرّيّة، مما يضمن الارتقاء المعنوي للإنسان أو أفضل من ذلك وأسمى، فيكون فاعلاً اجتماعيًّا. على العكس من ذلك: الحرّيّة شيء وهبه الحاكم أو المشرّع بحسب مشيئته إلى كلّ فرد من الأفراد على حدَة، ليستعيدها منه ساعة يشاء.

الحرّيّة هنا ليست ارتقاءً منحه الإنسان لذاته بإرادته وجهده وتضحيته، كذلك ليست هي الواقع الذي ينطبق على الأشخاص أفرادًا في التاريخ والجغرافيا الثقافيّيْن ـ السياسيّين، أو الذي تحقَّق بالفعل، وإنما هي تابعةٌ في كلّ مجتمع وفي كلّ عصر، بل في كل سنة وكلّ شهر لقرارات الحكّام ولرغباتهم. ليس في متناولنا شيءٌ ثابتٌ باسم الحرّيّة السياسيّة، وإنما هي أمرٌ نسبيّ، تختلف من هذا المجتمع إلى ذاك، حتى أنها تختلف في المجتمع الواحد أو تتناقض من يوم إلى يوم آخر.

ليست الحرّيّة في تعريف مونتسكيو وأتباعه وأقرانه، هي ما يجب على المشرّع أن يراعيَه ـ وإنما أسوأ من ذلك ـ يُعدّ واضعُ القانون خالقَ الحرّيّة السياسيّة.

ما عناه المفكرون باستخدامهم للفظة «الحرّيّة» أو الإشارة إليها، ليس سوى ما فكّر به مونتسكيو وأقرأنه أو قالوه.

«المراد بالحرّيّة بمعناها الأشمل، وضعيةُ الخلاص، عدم الوقوع

في الأسر والقيود، عدم الخضوع لأحد، وعدم الخضوع للضّغوط، والتخلّص من الأعباء»[1].

نفهم من عبارة «حالة الحرّيّة» أنّ لفظة الحرّيّة تُطلق على حالة الخلاص من الأسر، من الظلم، وكسر القيود، والتحرّر من قهر الغير وغَلَبَتِه، والتخفّف من أعباء الأحكام الجائرة، أيِ التخلي عن حالة الأسر والانتقال إلى الحالة المضادة. كذلك فإنّ الحرّيّة ليست حالةً وصفةً، وإنما هي بمعنى السّير من حالة الأسر إلى حالة الحرّيّة؛ وندرك في النهاية ضرورة أن تتوجد العناصر التسعة التالية لتتحقق «الحرّيّة»:

1 ـ الإنسان.

2 ـ قدرته على الحياة وعلى الارتقاء المعنوي أو سَير التقرّب.

3 ـ تعلّق إرادته ورغبته بالحياة وبالارتقاء المعنوي.

4 ـ العوامل المخلّة والمفسدة.

5 ـ فعل الإخلال والإفساد، العوائق والحواجز والقيود.

6 ـ المحيط.

7 ـ موقف الإنسان الطامح إلى الحياة وإلى الارتقاء المعنوي في مواجهة العوامل المخلّة والمفسدة.

8 ـ الصّراع معها المتزايد يومًا بعد يوم.

9 ـ الانتصار عليها أو بحسب المصطلح القرآني: الفلاح والفوز والنجاة والعزّة؛ من خلال السير والانتقال من حالة الأسر إلى حالة الحرّيّة.

---

(1) يوليوس غولد ووليام كولب، **معجم العلوم الاجتماعية**، ص 6.

نحن جميعًا لدينا تجاربنا في مواجهة العوامل المخلّة والمفسدة، التي تَحول بيننا وبين الحياة، وتقف عائقًا في طريقنا نحو الرشد المعنوي، كذلك رأينا وشهدنا نضالَ الآخرين وجهودَهم لإزالة العوائق من طريقهم وفي مواجهة أعدائهم، وقرأنا أيضًا ما تعرّضوا له من أحداث طيلة التاريخ. لكنّ القليلين منا يملكون الإدراك العلميّ والفهم العميق لأوالية هذه التجارب ومعطياتها ومحرّكاتها وكيفية حدوث الانتصار فيها ـ أيّ تحقق الخلاص والحرّيّة ـ، كذلك فإنّ مفاهيم الأسر والذلة أو الحرّيّة والعزّة، ليست مما يمكن استنتاجه منطقيًّا من خلال تجربتنا الحسّيّة من خلال الأوضاع المحيطة بنا، وإنما هي تعابيرنا عن هاتين التجربتين اللتين لا تبرهَنان منطقيًّا.

إنّ ما أسعى إليه في هذا الكتاب هو تقديم إدراكٍ علمي وفهمٍ معمّق لهذه الظاهرة، أو الحديث من خلال التحليل والتوضيح العلميّين.

لاستمرار حياتنا والمحافظة على بقائنا، نحن كبشر مجهّزين فضلاً عن قوة العضلات والحواسّ والعقل، بمحرّك موروث نسميه المحرّكاتِ العضويّة أو اختصارًا مَلَكة صون الذات. ولتأمين الارتقاء المعنوي نحن مسلّحون أيضًا، فضلاً عن هذه الإمكانات والقدرات، بالعقل، وبمحرّك فطريّ آخر يُسمى الميل إلى الحقّ ـ الحنيفية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾[1].

هذان المحرّكان، أو هاتان السّليقتان، تكون لهما أردنا أم لم نُردْ بمجرّد مواجهتهما للعوامل المضرّة والعوامل المخلّة بالارتقاء المعنوي ردّةُ فعلٍ طبيعية تلقائية ولا واعية، حتى أنهما تحضّاننا على التعاون مع الآخرين والاتحاد في هذا السبيل، لتكون لنا

(1) سورة الروم: الآية 30.

مواقف موحّدة، لنتمكن من تعزيز قوّتنا، وننجح في الدفاع عن الحياة أو الرشد المعنوي، ولنهيِّئ الاستعدادات والقدرات والإمكانات للتصدّي للأعداء، وإزالة العوائق، والقضاء على الآثار السيّئة والسلبية للعوامل المخلّة والمفسِدة.

الإنسان في نظام الوجود وفي المحيط:

نحن كبشر، نعيش في نظام الوجود، وهو غير المحيط [البيئة]، متقدّمٌ عليه، ولا متناهٍ، في الوقت نفسه نحن نعيش في محيطات أربعة: الطبيعي والداخلي والاجتماعي والدولي؛ تُطلق لفظةُ المحيط أو البيئة على مكان، وأحيانًا على فضاء يتضمن عواملَ كثيرة مؤثّرة في الإنسان ومتأثّرة به، أو محايدة. وتقسم العوامل المؤثرة في الإنسان إلى نوعين؛ إيجابيّة ملائمة، أو سلبيّة مخلّة، بحسب تأثيرها في الحياة والارتقاء المعنوي.

أما العوامل الإيجابية أو المساعدة فهي التي تسهّل لنا ظروف العيش، وتسرّع ارتقاءنا المعنوي، بمعنى أنها تكوينًا أو تشريعًا ـ على نحو إراديّ وواع ـ مصداقٌ لأمره عزّ وجلّ: ﴿...وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[1]، أمّا العوامل السّلبيّة أو المخلّة والمُفسِدة، فهي التي تعيق حركة حياتنا، وتحُول دون ارتقائنا المعنوي وتَقرُّبنا من الله عزّ وجلّ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[2].

هذه المحيطات الأربعة، أو العوامل المؤثرة في الإنسان سلبًا وإيجابًا متنوعة جدًّا، من حيث ماهيتُها، ويمكن أن نقسّمها إلى

---

(1) سورة المائدة: الآية 2.

(2) سورة القلم: الآية 12.

مجموعتَيْن: الإنسانيّة [الأفراد والجماعات والشعوب]؛ وغير الإنسانيّة [الأشياء، الحيوانات، الحوادث، وغير ذلك].

هنالك تأثير متبادل في المحيط الاجتماعي بين الأفراد والمجموعات، وفي المحيط الدولي بين الأفراد والشعوب.

وتُقسم عوامل التأثير من وجهة نظر أخرى إلى نوعَين: العوامل المرئية والعوامل غير المرئية.

فضلاً عن العوامل المؤثّرة، يمكن أن نذكر في هذا السياق مسألةً مهمّة أخرى وهي أساليب التأثير المتبادلة التي تتميز بالتنوع، لكنها ليست بكثرة العوامل الأولى. فعلى سبيل المثال، تسود في معظم المجتمعات أساليبُ الحوار والصّداقة، وتبادل الآراء والتفاهم والتعاون؛ واستمرارُ المجتمعات متعلقٌ بدوامها واستمراريتها. هذا النوع من الأساليب التي لها تأثير ذو جانبين أو أكثر، يمكن أن نسمّيَها الأساليب الأخويّة، وأقرب الأهداف التي يمكن رصدُها من خلالها، هي تصحيحُ سلوكِ الآخرين وأفكارِهم وأقوالِهم وعقائدِهم ورؤاهم وتطلعاتِهم، وأنسَنَتُها، وهي مختصّة بالمجتمع التوحيدي، أو الأمّة الإسلامية: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ إلى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[1] ﴿...وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾.

إن هذه الأساليب الأخوية والخيّرة، كالتثقيف وبثّ روح الجهاد والتحرّر، أو مساعدة البشر للخلاص من الأسر، والارتقاء من حالة الأسر والذّل إلى حالة الحرّيّة والعزّة، ليست محصورة بمحيط اجتماعيّ خاصّ، أو محصورة في داخل حدود الأمّة الإسلامية، وإنما هي تتّسع لتشمل الساحة العالمية والمحيط الدّولي. . .

---

(1) سورة العصر: الآيات 1 ـ 3.

هنالك نوعٌ آخر من التأثير في العوامل المحيطة ليس سلميًّا ولا حميمًا، وإنما يتخذ شكل صراع ومقاومة للعوامل المفسدة التي تخلّ بالحياة وبالارتقاء المعنوي للإنسان، والتي هي عبارة عن: العوامل اللامرئية، الأشياء، الحوادث الطبيعية والاجتماعية، الأفراد والجماعات، المعطيات الثقافية للإلحاد وللشرك؛ الدول الطاغوتيّة المستكبِرة والاستعمارية.

نحن عادةً نستخدم الطريقتين المؤثّرتين في المحيط الطبيعي مترافقتَيْن: فمن ناحية نشحذ العزائم للمحافظة على البيئة المحيطة، ومن ناحية أخرى نعمل على مواجهة العوامل المفسدة والمهلكة والآفات والقوى المخرّبة الموجودة في الطبيعة، ونحاربها بكلّ ما نملك من قدرات وإمكانات للقضاء عليها، فحياتُنا رهنٌ بهذا الإصرار وهذا الجهاد.

إنّ البَشر في المحيط الطبيعي يواجهون العوامل المفسدة والمخلّة بشكل فرديّ وبشكل جماعيّ ومنظّم. وتشبه مواجهتهم الجماعيّة المنظّمة العيش المشترك والتعايش الذي نشهده بين أعضاء المجتمع النباتي، أو بين النمل والنحل في مستعمرات الحشرات. إنّ التعايش يتمّ بصورة غير مباشرة من طريق التأثير والتأثّر المتبادَلَيْن بين الموجودات الإنسانية ومحيطها، مترافقًا مع الاستعدادات الثقافية. ومعنى التعايش في علم الإناسة، حياة نوعين أو أكثر غير متجانسين إلى جانب بعضهما بعلاقة قريبة في عشّ واحد أو مجتمع واحد، ويدور حول محور التغذية الذي يمكن أن يكون متناقضًا، أو مفيدًا ومتبادلاً، أو في الوقت نفسه متناقضًا ومتبادل الفائدة.

في العلوم الاجتماعية يَستخدم بعض الكتّاب لفظةَ التعايش لتوضيح شبكة العلاقات المعيشية المعقَّدة، التي تربط الجماعة الإنسانية اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا، وتَشغل في هيكلية مبنية على تقسيم العمل مواقعَ استخدام متخصّصة.

الإنسان «نفسه» المجهّز بقدرات تمكّنه من تغيير المحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي والدّولي، لديه أيضًا قوة ً فطرية لإيجاد تغييرات مهمة في العوامل المكوّنة لبنْيَتِهِ المعرفية المتعالية. وهو قادر كذلك على إبطال عمل المحرّك الفطري «الحرص والطمع» أو «الهوى» الذي يدفعه من الداخل باستمرار، فيُخضع غرائزه العضوية لسلطة إيمانه وتقواه، ويبرمج نمط عملها برمجةً ذهنيّة، بحيث يعمل ذهنه بشكل شبه تلقائي: الصيام مثلاً تمرين على هذا العمل، والتأمل كذلك في أعماله وفي أفكاره ومعتقداته السّابقة، أو بطريقة مخاطبة نفسه، فيصحح الأخطاء والانحرافات، ويؤثّر في محيطه الداخلي على العناصر السلبية في بنيتِه الفطرية.

حين يتعامل الإنسان مع بدنه كشيء خارجي، جزءًا من المحيط، يمكنه أن يؤثّر فيه، في حين أنه في أثناء محاربته للعوامل المفسدة والمخلّة بالحياة، فإنه يعدّ بدنه جزءًا منه، ويتعامل معه على هذا الأساس.

كذلك حين يجعل «نفسه» موضوعًا معرفيًا، بحيث ينفصل عنها «كمعلوم» في مقامه عالمًا.

إنّ كلًّا من المحيطين الاجتماعي والدولي مركّب من فضاءات ثلاثة: ثقافية وسياسية واقتصادية، وفي كلٍّ منها تتعرض الحياة والرّشاد أو الارتقاء المعنوي لتهديدات من جانب الممسكين بزمام السياسة والاقتصاد والثقافة ـ الكهان والعرّافون قديمًا، وسلاطين الإعلام حديثًا ـ والمعطيات الثقافية للإلحاد. وهذه العوامل هي التي تشكل أهم العوامل المفسدة والمخلّة بالحياة وبالارتقاء المعنوي. المجموعات الثلاث من السلطات المستبدّة التي مرّ ذكرها، هي نوعَا الناس أو الفريقان الاجتماعيان من المترَفين والمستكبرين الفاعلين والمحرّكين هم وسياساتُهم للأوضاع الاجتماعية، فيثيرون ردودَ أفعال المظلومين والمأسورين أو المستضعفين وطلاب الحرّيّة.

وتتمثل ردود أفعال المظلومين وطلاب الحرّيّة في مواجهة أفعال المستكبرين والمترفين نضالاً لإسقاط السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية، أو السلطة الثقافية، وإخراج مصادر الثروة والقوة من براثن المترفين والمستكبرين، لإبطال عملهم وتأثيرهم أو القضاء عليهم للتحرّر والرّشاد والتعالي والتقرّب. هذا الجهاد التحرّري هو أحد الأشكال الأساسيّة للعمل الجماعي الذي يهدي إلى الوحدة في الحقّ وإلى العدالة والقيم الرفيعة، والعلائق السامية: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا...﴾[1].

إن البشر غير متساوين ولا متماثلين من حيث حساسيتُهم تجاه العوامل والعناصر المفسدة والمخلّة بالمحيط، والاستجابة لها أو محاربتها. كذلك هم ليسوا بالمستوى نفسه من حيث شدّة تعاونهم وتكاتفهم لمواجهتها.

هذا الاختلاف القِيَمي الأخلاقي والديني بين أفراد البشر، أقوى وأشدّ من حساسيتهم تجاه العواملِ المفسدة والمخلّة بالمحيط ومحاربتها. إنّ قسمًا كبيرًا من البشر يشكّلون هم العوامل المخرّبة للمحيط والمفسدة له وعلى رأسهم المستكبرون في المرتبة الأولى، والمترفون في المرتبة الثانية. ويعدّ الملوك والأباطرة والمستعمرون والرأسماليون بالنسبة إلى الناس العوامل المخرّبة والمفسدة والظالمة.

إن أشدّ الناس فضيلةً وقيمةً، هم أولئك الذين يقضون حياتهم في المجاهدات المتنوعة والمتواصلة، في مواجهة الظالمين والمستكبرين المعتدِين والمترفين المتسلّطين أو الطّاغوت، إلى حدّ

---

(1) سورة آل عمران: الآية 103.

بذل الروح في هذا السبيل المقدّس ـ سبيل الله وصراط التقرب منه ـ وهم المؤمنون بوحدانية الله وبالنبوّة والمعاد. وتتعيّن درجاتهم بحسب حساسيتهم واستجابتهم للمحركات الداخلية وعوامل المحيط المخلّة والمفسدة، وسعيهم لصون أنفسهم، ودورهم في المحافظة على المجتمع وارتقاء البشرية معنويًا. كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**من رأى منكم المُنكَر فلْيغيّره بيدِهِ فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه، وذَلكَ أضعفُ الإيمانِ**»، فالمعروف هو الأعمال الصالحة وعوامِلها، والمنكر هو الأعمال الطالحة والفواحش والآثام والظلم وعوامِلها. وقد أكد القرآن على هذين المفهومين وأوْلاهما أهميّةً شديدة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾[1].

إن هذا التفاوت القِيَمي والتراتبي لا يتعلق بالبشر وحدهم، فعلماء النبات يقولون به بالنسبة إلى النباتات، بحيث إنّ النوع الأعلى من النبات هو الذي يؤثر عمله في الظروف البيئية، لتتوافر الظروف المؤاتية لعمل أنواع النباتات الأخرى التابعة لها...

في الثورات الشاملة التي تُحدث تغييرًا جذريًا في المحيط الاجتماعي، وتقضي قضاءً مبرمًا على العناصر المخرّبة والمفسدة، كالسلطة الاستبداديّة والطاغوت وناهبي الثروات العامة، أو تلك التي تقطع فضلاً عن ذلك دابرَ المستعمرين وتطردُهم، فيحصل الناس على الحرّيّة السياسية وتاليًا على الاستقلال ـ أو الحرّيّة الوطنية ـ، هنالك تفاوت إلى حدّ التضاد بين قيم المجموعات الاجتماعية...

---

(1) سورة المائدة: الآيتان 78، 79.

مجموعة الثوريين وفي النقطة المقابلة مجموعة المحافظين، وبينهما فريق محايد لا لونَ له ولا موقفَ...

الثوريون أيضًا درجات، فعلى سبيل المثال، في الثورة الفرنسية الكبرى في العام 1798م كان لروسّو ومونتيسكيو عمل أساسيّ أو «عمل مفتاح» وكانا المرشِدَيْن للثوريّين. لقد خلقا لدى الناس موجباتِ الاطّلاع والمعرفة السياسية، والعلائق السامية نسبة إلى ما كانَ موجودًا في فرنسا وفي أوروبا في حينه. فهما في الواقع والدا الثورة، وحين قرأ لويس الخامس عشر آثارهما وهو في سجن الثورة صرخ دون وعي: هذان هما اللذان ذريا فرنسا في مهب الريح».

العمل المفتاح أو الأقوى تأثيرًا في المحيط الاجتماعي والدولي يتمثل في الرسالات السماوية والثورات التوحيدية: بعثة أو ثورة النبي الذي سمّاه الله عزّ وجلّ ﴿أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، أو «أول المسلمين»[2]. وأَبَوَا الثورة التكاملية: «الإسلام»، هما النبيُّ الأكرم (ص) وعلي (ع)، وقال الرسول (ص) **«أنا وعليٌّ أَبَوَا هذه الأمّة»**.

إن التأثير العميق للأنبياء عليهم السلام يكون من خلال حمل الرسالة وتبليغها للناس، أي نقل تعاليم الوحي والشريعة ـ مجموعة القوانين والأحكام الإلهية ـ ومن طريق النظام الاجتماعي الرسالي وقيادة المؤمنين وإعدادهم للجهاد، وتنظيم الدولة التي تضع على رأس أولوياتها وبرامجها ما يساعد المجتمع على الارتقاء المعنوي والتقرّب إلى الله.

إن الثورة الإسلامية الإيرانية التي عملت من أجل «الاستقلال»

---

(1) سورة الأعراف: الآية 143.

(2) سورة الزُّمر: الآية 12؛ وسورة الأنعام: الآية 163.

على طرد المستعمر، ومن أجل الحرّيّة على تحقيق الارتقاء المعنوي السليم للناس، وإسقاط المَلَكِيّة والطاغوت، وأقامَتْ الجمهورية الإسلامية للارتقاء بالبنية الاجتماعية، وبرفعها شعارَ لا شرقية ولا غربية، افتتحت أمام الشعب وأمام مستضعفي العالم الطريق إلى النظام الاجتماعي الذي تحقق في صدر الإسلام، وكان «العمل المفتاح» في أيدي الذين أعادوا إحياء الميراث الثقافي ـ التوحيدي أو سنّة الأنبياء وسنّة خاتم الأنبياء (ص) والمعصومين (ع)، أعني المفكرين الإسلاميين الثوريين، الذين استطاعوا من خلال تعرّف الإسلام من مصدرَيْه: القرآن والعترة الطاهرة، ومن حَمَلَتِه طيلةَ أكثر من ألف عام، أن يميّزوا الإسلام النقيَّ من «غير الإسلام»، وعرضوه تاليًا على الناس ونقلوه إليهم وعلّموه لهم بالقلم والقول، وبالقدوة الحسنة بتجسيدهم للحياة الطيّبة تجربةً واختبارًا، وجهادًا ومحاربةً للطاغوت والاستكبار وصولاً إلى الشهادة.

الفصل الثاني

عواملُ المحيط المخرّبة والمُفسِدة

أ) العواملُ المفسدة المخلّة بالحياة:

إن الحياة بدون معرفة هذه العوامل ومحاربتها لا تُحتمل:

1 ـ اللصوص:

قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾[1].

إنّ محاربة السارقين مسيرة للتقرب إلى الله العزيز الحكيم، وهي التي تؤدي إلى العزّة والفتح والحرّيّة.

2 ـ المعتدُون الأجانب أو المستعمِرون:

لهؤلاء في التاريخ أسماء مختلفة: الملوك الأباطرة، والإمبريالية، والإمبريالي، وملك الملوك، وقد عبّر الله تعالى عن أعمال هؤلاء على لسان بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ

---

(1) سورة المائدة: الآية 38.

﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، وعلى لسان العبد الصالح مخاطبًا موسى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾[2]، إن أمر الله عزّ وجلّ في مثل هذه الأوضاع الدفاع المقدّس لصدّ الظلم، والقضاء على سلطة الأجانب والمستكبرين والمترفين المعتدين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، إلا أن يقولوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ...﴾[3].

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[4]

3 ـ المستبدّون أو الطاغوت[5]:

هؤلاء المستكبرون المستعمرون والمترفون أو الرأسماليون هم أشرّ الأعداء للمستضعفين والمحرومين والمظلومين. ومن شروط التقرُّب إلى الله مقاومتُهم ومحاربتُهم، لتحرير المستضعفين: لنيل الحرّيّة السياسية في المحيط الاجتماعي؛ والحرّيّة الوطنية ـ أو

---

(1) سورة النمل: الآية 34.

(2) سورة الكهف: الآية 79.

(3) سورة الحجّ: الآية 39، 40.

(4) سورة الأنفال: الآيتان 12 ـ 18.

(5) هذه اللفظة تستخدم للمستبدّ مفردًا وجمعًا.

الاستقلال ـ وهي الحرّيّة في المحيط الدولي: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[1].

4 ـ الخوَنَة في بيت المال [أموال الخزينة والأموال العامة]:

لهؤلاء أسماء عديدة: المختلسون، وفارضو الخوّات والذين يسيؤن استخدام المنصب والمعلومات الرسمية...

إنّ المال العامّ هو مال الله والرسول والمؤمنين، وخيانته خيانة لله وللرسول وللمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

5 ـ الراشُون والمرتَشُون:

المترَفون الذين يقدّمون الرشاوى إلى القضاة وسائر الحكام والموظفين، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، والذين يستميلون موظفي الدولة وبخاصة موظّفي الدرجة الأولى في السلطتين التنفيذية والقضائية خدمةً لمطامعهم للاستيلاء، على أموال الآخرين أو الأموال العامة وتقاسمِها. وسمّى الله عزّ وجلّ هذا العمل: أكل أموال الناس بالباطل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[3].

---

(1) سورة النساء: الآيتان 75، 76.

(2) سورة الأنفال: الآيتان 27، 28.

(3) سورة البقرة: الآية 188.

6 ـ الذين يأكلون أموالَ الناس بالباطل، أو بالعدوان في التجارة أو الاتفاقيات أو سائر العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية:

نعرف من خلال الآية 188 من سورة البقرة والآية 38 من سورة النساء، ومن خلال التجارب الاجتماعية والعالمية التي لا تعدّ ولا تحصى، هذه الحقيقة الأساسية وهي أنّ الرّشوة والارتشاء ليست سوى وسيلة الحرام وأكل أموال الناس بالباطل، وبغير وجه الحق، وبالإثم والعدوان، ويمكن أن نختصر ذلك بقولنا: «أكل أموال الناس»: الذي يظهر بمظاهر وأشكال متنوّعة ينتج عنها عدّة جماعات من «أكلَة الأموال» الذين ينضمّون إلى العوامل المفسدة والمخلة بالحياة:

أ ـ الذين يأكلون المال العامّ أو «بيت المال» أي [الخزينة العامة]:

وهم الذين سمّاهم إمام المتقين (ع)، الخائنين للإمام وللأمّة «المختلسين»[1]، ويسمّون في القانون «المختلسين»، قد لعنهم النبيّ (ص)، فقد نقل الإمام الباقر عن النبيّ (ص) أنه لعن خمسة ودعا عليهم ـ ودعاء الأنبياء مستجاب ـ وهم: الذي يتقوّل على الله عزّ وجلّ، ومن يترك سنّتي ومن يستحلّ بغير حق شيئًا من بيت المال ومن المال العامّ[2].

وقد وصف أمير المؤمنين مختلسي الأموال العامة من خلال وصفه لسلوكه هو تجاه هذه الأموال قائلاً للناس: إنه قد أتاهم وهو يلبس ما يلبس ويركب ما يركب، فإذا فارقهم وعليه كسوة غير كسوته وركوبة غير ركوبته يكون حينئذ خائنًا لهم، وكذلك يجب أن يكون ولاتُه وعمّالُه.

---

(1) الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح محمد عبده، ج3، ص 73، 74.

(2) محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي**، ج2، ص 293.

ب ـ الذين يأكلون أموال اليتامى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾[1].

ج ـ المُسرفون، أو الذين يهدُرون الثروة الوطنيةَ والأموالَ العامّة:

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿...وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾[2]، و﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾[3]، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[4].

د ـ الذين يأكلون الرِّبا:

جاء في الكتاب العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[5].

---

(1) **المناقب**، ج2، ص 98؛ والمادة 142 من الدستور الإيراني تتضمن تطبيق هذا الحديث.
سورة النساء: الآية 10.

(2) سورة غافر: الآية 43.

(3) سورة الإسراء: الآية 27.

(4) سورة الشعراء: الآيتان 151، 152.

(5) سورة البقرة: الآيات 274، 276.

وأشدّ تحذير وجّهه الرسول إلى أمّته هو التحذير من الكسب الحرام والشهوات الخفية وأكل الرّبا[1].

هـ ـ المحتكِرون:

جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾[2].

ويقول أمير المؤمنين: «**الاحتكارُ حرمانُ للناس**[3]»، و«**الاحتكارُ عملُ الأشرار**[4]»، **وقد أمر قاضيَه في الأهواز، أن يمنع الاحتكار ويعزّرَ مرتكبَه، وأن يعاقبَه بفضح عمله**[5].

وقال الرسول الأكرم (ص): «**في أدنى درجات جهنم يجتمع: المحتكِرون والسُّكارى والقوّادون**»[6].

و ـ المطفّفون:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ

---

(1) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، المجلّد 104، نقلاً عن «**نوادر الراوندي**»، حديث للإمام الكاظم (ع).

(2) سورة التوبة: الآية 34.

(3) الآمدي، **غرر الحكم**، ص 15.

(4) المصدر نفسه ص 21.

(5) القاضي النعماني **دعائم الإسلام**، ج2، ص 36.

(6) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج1، ص 314، 315.

ٱلدِّينِ ﴿١١﴾[1]، وقال الإمام الباقر: «**إن كلّ من استُخدمَت في حقّه لفظة «الويل» هو كافر**»، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿...فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

ز - بائعو السِّلع المغشوشة، المحتالُون في البيع والشراء:

وقد قال الرسول الأكرم: «**إنّ من يحتال في البيع والشراء ليس من أمّتي، وسيُحشر يوم القيامة مع اليهود الذين هم اكثر احتيالاً**»[3]، والإمام الصادق (ع) يقول: «**حرامٌ أن يُغبن المؤمن**[4]».

ح - المستثمرون:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[5]، وقال النبي الأكرم (ص): إن الله يغفر الذنوب لمن يشاء إلّا المبتدع، ومن يغصب العامل حقَّه، أو يبيع الحرّ عبدًا، وعدّ غصب أجور العمّال من الكبائر[6]، وأوصى وهو على فراش الموت عليًّا، أن لا يسمح بظلم المزارعين[7].

وقد سمّى القرآن الكريم هذه الأنواع السبعة من البشر «القاسطين»: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[8]، أما «المقسطون»

---

(1) سورة المصطفّفين: الآيات 1، 11

(2) **تفسير نور الثقلين**، ج5، ص 527.

(3) المحدث القمي، **سفينة البحار**، ج2، ص 318.

(4) الكليني، **الكافي**، ج5، ص 380.

(5) سورة الشورى: الآية 42.

(6) **وسائل الشيعة**، ج13، ص 247؛ **وبحار الأنوار**، ج40، ص 59، وج103، ص 170، برواية الإمام موسى الكاظم.

(7) **الكافي**، ج5، ص 284، برواية الإمام جعفر الصادق.

(8) سورة الجنّ: الآية 15.

أو القائمون بالقسط، العادلون في معاملاتهم فإنهم أحباب الله: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾[1] وهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[2].

وفي الحديث النبوي، أنّ يدَ العامل المجدّ لا تمسّها النار، «وإنّ الله يحب إذا عَمِلَ أحدُكُم عَمَلًا أنْ يُتقِنَه»[3].

7 ـ القاتلون المعتدُون:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾[4].

8 ـ أهلُ البَغْيِ:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾[5].

9 ـ المحاربون لله والمُفسِدون في الأرض:

هؤلاء إنسانيًا ودينيًا لا يختلفون عن الكفّار المعتدين الأجانب، وهم كالمستعمرين والملوك والأباطرة الأجانب إمّا مستكبرون أو مترفون. لا يميّزهم من بعضهم سوى أمرين: الأول مكان سَكَنِهم واستقرارهم، والثاني الأسلوب والوسائل التي يستخدمونها لمحاربة الإسلام والدولة الإسلامية.

---

(1) سورة المائدة: الآية 42؛ وسورة الممتحنة: الآية 8.

(2) سورة النور: الآية 37.

(3) **سفينة البحار**، ج2، ص 278؛ **وأمالي الصّدوق**، ص 344.

(4) سورة الإسراء: الآية 33.

(5) سورة الحجرات: الآية 9.

فالمستكبرون والمترَفون المعتدون يعيشون خارج الديار الإسلامية، ولكنّ المستكبرين والمترفين الذين يحاربون الله ورسوله يعيشون داخل الديار الإسلامية. ومن حيث الأسلوب والوسائل الفَرقُ بين الفريقين، أنَّ أعضاء الفريق الأول يخلطون الأساليب غير المسلّحة ـ الثقافية والاقتصادية والسياسية ـ دون كلل بالهجوم المسلّح، أو أنهم يستخدمون كلّ أسلوب من هذين الأسلوبين في الوقت المناسب وبحسب الضرورة، واعتداؤهم علنيّ، في حين أنَّ أعضاء الفريق الثاني يعيشون في الداخل ويتظاهرون بالإسلام، يحاربون الله ورسوله ـ أو الدولة الإسلامية ـ بأساليبَ معظمها مخفية وغير مسلحة، ويعملون على زعزعة الاستقرار من الداخل بدون استخدام السلاح ـ عدا قلّة منهم ـ.

الاستعمال الحكيم والمجرّب للفظة «المحاربة» بصدد أعمالهم وسلوكهم وسياستهم، جاء لتنبيه المسلمين وتحذيرهم، بمعنى أن هذه الجماعة من المنافقين وإن كانوا على العكس من المعتدين الكفّار، لا يستخدمون السلاح عادةً، لكن بما أنَّ لأعمالهم الآثار نفسها التي تنتج عن الهجوم المسلح لأعداء الخارج، فإنّ أعمالهم ليست سوى مصداق لمحاربة الدولة الإسلامية ومواجهة الله ورسوله، ومن هذا الباب هم مفسدون في الأرض، ويبيدون «الحَرْث والنسل»، ويعرّضون الأمن الداخلي أيْ حرية الحياة وحرية الارتقاء المعنوي للخطر.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[1].

(1) سورة المائدة: الآية 33.

جاءت المصاديق عن محاربة الله ورسوله في الموادّ 507 إلى 512 من قانون الجزاء الإسلامي. دون تعيين كل ما ذُكر آنفًا بشكل مفصّل. بحيث إنّنا لا نعثر في ذلك القانون على أيّ ذكر للاجتياح الثقافي بأشكاله المخلّة بالارتقاء المعنوي للناس ولعقائدهم الحقّة، وتغيير تعاليم التوحيد المقدّسة.

ب ـ العواملُ المفسدة والمخلّة بالارتقاءِ المعنويّ:

1) المترَفون في الدور السياسي للطاغوت:

هم في المحيط الاجتماعي المترفون والرأسماليون المشركون والمنافقون ـ كالمُرابِين ـ الذين يستثمرون بغير حق ـ أو بالباطل وبدون وجه حق ـ أو بحسب التعبير القرآني «القاسطون»؛ أما في المحيط الدولي فهم «المستعمِرون» والمحتلّون، ومؤسسو الأمبراطوريات؛ وسياستهم الإمبريالية في استغلال الشعوب تشكل سجلّهم الأسود المليء بالخزي والعار، وما من حاجة بعد ذلك للقول: إنهم يخلّون بأمر الحياة للناس. كما أن إفسادهم الثقافي والسياسي الذي يُعَدّ إخلالاً مباشرًا في ارتقاء الناس المعنوي، هو ضرورة من الضرورات الطبيعية لاستعمارهم ودوام سلطتهم الاستعمارية.

يمكن تلخيص أعمال هذا الفريق الاجتماعي على النحو التالي: القتل، والإذلال ـ أو الأسر والاستعباد ـ لنهب الثروات وتكديسها.

النقطة الأساسية في علم الإناسة ـ الديني في حياة هذا الفريق وسياسته، أنه يرتكب القتل والتخريب والإذلال بهدف تكديس الثروات، ولا يعنيه سوى جمعَ الثروة، وليس مقدّماتها وطرق كسبها، وهي سياسة الاستضعاف. وهذا هو وجه تميُّزهم من الفريق الاجتماعي للمستكبرين.

2) المستكبِرون في الدَّور السياسيّ الطاغوتيّ والدَّورِ الاستعماريّ:

كان التحالف دائمًا ومستمرًّا بين المترفين والمستكبرين طيلة التاريخ على مختلف المستويات الجغرافية ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا.

إنّ التضادّ قائم باستمرار بين المستكبرين ـ بسبب طبيعتهم الخاصة ـ وبين الصالحين والمتّقين أكثر من سائر الناس. وعداؤهم للأنبياء وللمعصومين أشد من عدائهم للصالحين والمتّقين العاديين ومتوسطي الحال. وقد صوّر القرآن هذا التضادّ منذ صراع ابنيْ آدم وحتى عصر النبيّ الخاتم ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم...): ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ فتُقبّلَ من أحدهما ولم يُتقَبّلْ من الآخر، قال لأقتلنّك، قال: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

---

(1) سورة المائدة: الآيات 27، 30.

(2) سورة العنكبوت: الآيات 16، 17، 24.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

تندرج في هذا السياق محاربة مستكبري قريش للنبيّ ومن معه من المهاجرين والأنصار في المدينة، وفي غيرها من المواقع بعد ذلك، وصولاً إلى محاربة معاوية لعليّ (ع) ويزيد وابن زياد للإمام الحسين (ع)، ليبقى ما حدث في كربلاء وصمةً ونقطة سوداء في التاريخ الإسلامي...

إن سائر استهدافات المستكبرين العسكرية هي المراكز الثقافية المعنويّة: الصّوامع، والكنائس، والمساجد حيث يُذكر اسم الله كثيرًا، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[2].

3) الكُهّان:

واضِعُو فلسفة الحيوات الدنيوية المترفة والاستكبارية، أصحاب نظريات الشرك والإلحاد، والاحتلال والظلم، واجتياح البلدان، وإشعال الحروب والتسلط؛ وحَمَلَة هذه الفلسفات والنظريات والمعتقدات والقوانين ومروّجوها، والذين يعلّمونها من جيل إلى جيل، وينشرونها خدمةً لمجتمع ـ دولة الشرك والإلحاد التي يحكمها المستبدّون والمترفون. علماء العلوم الاجتماعية للحداثة هم امتداد وجوديٌّ لهؤلاء الكُهّان أنفسهم.

(1) سورة الأنفال: الآية 30.

(2) سورة الحجّ: الآية 40.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[1].

وكذلك فعل قوم موسى (ع) وقوم محمد (ص): ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾[2].

إن المستكبرين والمترَفين والكُهّان (فلاسفة الحياة الدنيوية الاستكبارية) وأشياعهم، ليسوا معادِينَ للأنبياء وأتباعهم بقدر عدائهم للطريق نفسه «سبيل الله» أو الصراط المستقيم وطريق التقرب إلى الله، وإنما يبغونها طريقًا عِوَجًا:

الكُهّان أيضًا يقومون بهذا الدور في المجتمعات التي تَسُود فيها الأديان الإلٰهية، ويلبوس علماء الدين.

4) منظّرو الشّرك والإلحاد، والتسلُّط، والطاغوت في لباس علماء أهل الكتاب:

يحذّر الله عزّ وجلّ المؤمنين من المشركين ويقول: إنهم نَجَسٌ، ويطلب إلى المؤمنين أن يقاتلوهم، ويقاتلوا أهل الكتاب الذين يحرّفون كلام الله، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.. .﴿...إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]... والذين يصدّون عن سبيل

---

(1) سورة الأعراف: الآيات 86، 88.

(2) سورة العلق: الآيات 6، 9، 10.

(3) سورة التوبة: الآيتان 30، 34.

الله ويبغونها عِوَجًا وهم بالآخرة هم كافرون،... أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون... والملأُ من قوم نوح الذين عيّروه أن الذين اتّبعوه هم أراذلهم وليسوا سراة القوم... فكان جواب نوح (ع): ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾[1].

5) «عُلماء السُّوء» في لباس المتفقّهين في الدين:

العلماء الذين يحرّفون كلام الله باسم تفسير القرآن وتعليم الحديث وسيرة المعصومين عليهم السلام، ليُضلّوا المستضعَفين لمصلحة الطاغوت والمستكبرين والمترفين، ويعرضون غير الإسلام على أنه الإسلام، ويكتمون طريق التقرب إلى الله، ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾[2]. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾... ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾[3].

---

(1) سورة هود: الآيتان 30، 31.

(2) سورة إبراهيم: الآيات 1، 3.

(3) سورة الصفّ: الآيات 1، 4؛ 7 9.

إنّ حياة «علماء السوء» الدنيوية الدنيّة لا تنسجم مع التعاليم الإلٰهية التي يَعِظون الناس بها، وبخاصة أنّ من واجبهم أن يقفوا مع المؤمنين المجاهدين صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص في مواجهة طواغيت العصر، والملوك الجبّارين، والاستعمار، والاستكبار العالمي، وصولاً إلى الشهادة. وأن يقفوا في مواجهة البدع السياسية والاجتماعية والثقافية: «إذا ظهرت البدَعُ، فعلى العالم أن يُظهِرَ علمَه، وإلّا فعليه لعنة الله»[1].

وعن الإمام الصادق أنه قال وصفًا «لعلماء السوء»: «أولئك أضرُّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيدَ على الحسين (ع)»[2].

---

(1) النائيني، الآخوند الخراساني، وعبد الله المازندراني، **تنبيه الأمه وتنزيه الملّة**.

(2) المصدر نفسه، ص 38.

الفصل الثالث

مَلَكة الاستقلالية في وجودنا

إنّ الإنسان موضوعَ المعرفة في مختلِف الفروع العلمية، إنسانٌ مجزّأ وناقص ومتدني القيمة؛ ذو روح، متعلقٌ بالطبيعة، معلولٌ ومقدّر؛ العلّيّة التي هي موضوع البحث والتحقيق في علم الأحياء وعلم التشريح، وعلم الطب. حيوانٌ محضٌ، لم يكن سوى ظاهرة من ظواهر الطبيعة كالسيل والهواء والنبات، وحركاته تابعةٌ لقوانينَ محدّدةٍ سهلةِ المعرفة، هو في علم الأحياء حيوانٌ، وفي علم التشريح جسمٌ، وفي علم الاجتماع «وجود اجتماعيٌّ»، وفي علم الإناسة عضو في قبيلة أو شعب.

لكنْ لدى الإنسان شيءٌ ليس من الطبيعة، ولهذا السبب لا يكون موضوع المعرفة العلمية، وبما أنّ هذا الشيء أثمن ما في الكون ويُشكّل وجوده الما فوق ـ طبيعي، فإنّ الاطّلاع عليه وتعرّفه، أرقى الاطلاعات والمعارف. ونحن لا نستطيع الإحاطة بوجوده من خلال الإحاطة العلمية بجميع المعلومات والتقارير التي قدمتها لنا العلوم المختلفة المتعلقة بالإنسان، أو التي ستعطينا إيّاها.

إن ما يرفعنا كبشر من مرتبة الطبيعة إلى مرتبة الإنسان، لنخرج من دائرة الموضوعات المعرفية العلمية هو «إرادتنا»: القدرة التكوينية والفطرية على اتخاذ المواقف المتناقضة، والقيام بأنواع العمل، واختيار نمط معيّن من أنماط الحياة المختلفة، واختيار كيفية العيش، وكيفية الموت؛ القدرة على التغيير: إمّا الانحطاط إلى أسفل سافلين، أو السموّ إلى أعلى علّيّين. البعد عن الله إلى ما لا نهاية، والقرب من الله إلى ما لا نهاية.

إن القوة التي تأسرنا في قيود عوامل المحيط، والقوة التي تحرّرنا من «الأصُر والأغلال»، كلتاهما جزء من قدرتنا التكوينية، التي تسمّى «الإرادة»، وهي هذه القدرة الفطرية للتحرر في المحيطات الأربعة.

مقامنا الما فوق طبيعي هو خارج متناول العلوم المختلفة، ومقامنا كـ «وجود مستقلّ» يهب حياتنا بُعدًا يجعل دنيا الظواهر الطبيعية تحت سيطرتنا. إنّ إنسانية الإنسان تابعةٌ لمقامه الأخير أو وجوده المستقل، وإلى هذا المعنى يشير الله عزّ وجلّ حين يقول للشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

لا يجب الظنّ أن «الإرادة[2]» أو ـ القدرة الإنسانية ـ أو القدرة الخلّاقة لدى الإنسان، هي شيءٌ في وجوده، أو حتى في تكوينه الفطري، بالمفهوم البسيط والعامّي، وإنما هي في الحقيقة وصفٌ لوضعه في نظام الوجود، ولوضعه في البيئات الأربع.

---

(1) سورة الحِجر: الآية 42.

(2) سمّاها «مونتيسكيو» الحرية الفلسفية ويقول في تعريفها... «هي عبارة عن تنفيذ الإرادة، أو على الأقل إحساس الإنسان واعتقاده أن بإمكانه تنفيذ إرادته ورغبته وتحقيقها».. .**روح القوانين**، الكتاب الثاني عشر، الفصل الثاني.

في علم النفس ـ الاجتماعي، على حاشية مسألة الوراثة والمحيط جرى البحث حول موضوع الأعمال النفسية في الأوضاع والأحوال الاجتماعية. في هذا البحث لم يجرِ الاهتمام بالدّور الحاسم والفاعل للإرادة أو «الذات» البشرية، وأُهملت هذه الحقيقة. لكن حين تُطرح مسألة الشخصيّة تُعطى الأهميّة القصوى لعامل المقام والدور الاجتماعي للفرد، وكأنّ تكوين الشخصية ليس من عمل صاحبه، وإنما من عمل المجتمع أو المحيط؛ يقولون: «حين يكبر الفرد وينمو خارج المجتمع البشري، لا يُلاحظ في سلوكه على الإطلاق أيّ خاصّيّة يمكن أن تُعدّ خاصّيّة آدمية»[1]، في هذا الكلام وفي خلفيته العقائدية يُلاحظ إنكارٌ للبيئتين الطبيعية والداخلية. في حين أن الشخص المفترض يمكنه في البيئتين المذكورتين أن يتصرَّف وأن يعيش بأساليبَ مختلفة، وأن يتفاعل مع عناصر المحيط الجيدة أو السيّئة، الإيجابية أو السلبية.

إن إنسانيّته تظهر جيدًا في كيفية هذا التفاعل. أما منكرو «الذات» الإنسانية فينكرون التأثير العلّي لـ «ذات» الإنسان، وأنماط سلوكه الإرادية، واختياره نمطاً من أنماط الحياة المتضادّة والمختلفة، وتأثيره العلّي في المؤسسات الاجتماعية، ويتغاضون عن الظواهر العظيمة والعالمية لمقاومة الأفراد الراشدين الأحرار للأنظمة الاستبدادية، والتمرّد عليها، كما يتغاضون عن الثورات التكاملية الشاملة.

يرَون إلى عناصر الحياة والصّفات الوراثية، وعوامل المحيط الاجتماعي أيضًا، بدون أي ذكر للعامل الإرادي والواعي الذي هو «ذات» الإنسان، أو بدون أن يحسبوا لها أيّ حساب. هنالك مكان

---

(1) استوتزل، **علم النفس الاجتماعي**، ص 51.

في أبحاثهم للوراثة ـ المناقضة للتكوين المعرفي المتعالي ـ، وكذلك للمحيط الاجتماعي المطروح في المعرفة المتعالية والمعارف الموحى بها إلى الأنبياء، لكن ما من ذكر للإرادة أو القدرة على الاختيار، وما من كلام على انحطاط الإنسان أو رفعتِه.

لقد أكد علماء الاجتماع الغربيون تقليدًا لليبراليّي القرن الثامن عشر على الأثر الحاسم لعوامل المحيط في تكوين الطبيعة الإنسانية، وشبّهوا البنية الفكرية والنفسيّة للإنسان بالصفحة البيضاء التي تُحفَر عليها النصوص والموضوعات المتعلقة بالمجتمع وبثقافته، وهي ليست مستقلّة بذاتها وبنفسها. وعلى هذا الأساس أوصَوا بالاصطباغ بصبغة الأكثرية، ورأَوا أن هذا اللون الموحّد والانصياع التام هو القاعدة الطبيعية للإنسان ودليل «سلامته»، و«الإنسان السالم» برأيهم هو المنصبغ بصبغة مجتمعه والخاضع للسلطة الطاغوتية الحاكمة. وبهذا المعيار عدّوا الإنسان الحرّ الباحث عن كرامته وعزّته، الرافض للقوانين الجائرة والقواعد الدنيّة، المتمرد على الطاغوت وعلى المستبدين والمستكبرين «مريضًا». ويزعم هؤلاء العلماء أن المجتمع المنحطّ والمريض وغير السالم غير موجود، وهنالك فقط «أفراد مرضى»، وهم الذين يعيشون ويعملون ويتصرفون على العكس مما تمليه عليهم القواعد الرسمية التي أقرّها المستبدّون. وهم يقولون كذلك: إنّ الخيرَ والشرّ والخطأ والصواب نسبيان أيضًا، ويختلفان من مجتمع إلى آخر. ولا يوجد ما يمكن أن يُسمى الرشد والكمال أو الانحطاط والدناءة الذي يصدق على أفراد البشر في أيّ مجتمع، فكيف يصدق على التاريخ والجغرافيا للبشرية كلها. فالخير والصلاح والحقّ والكمال هي ما يقرّه حكام بلد من البلدان ويأمرون به. والشرّ والباطل والانحطاط ما نهَوا عنه، وغرّموا مرتكبه وعاقبوه.

إنّ الحقّ في بلد من البلدان هو ما أقرّه حكام ذلك البلد قانونًا،

على الرغم من أنّ نقيضه يعدّ «حقًا» في البلد المجاور، أو البلدان الأخرى. لكن الحقيقة هي على العكس من ادعاءات هؤلاء الملحدين والمشركين؛ إن عددًا من عناصر المحيط الاجتماعي مفسدة للروح وللرؤيا وللعقائد ولسلوك الناس، فيهبطون من الحياة الإنسانية إلى حياة الترف والحياة الحيوانية المحضة أو أدنى من ذلك، والحياة الاستكبارية، أو أنها توقعهم في الأسر؛ وبعض عناصر المحيط مفيدة للحياة وللارتقاء المعنوي.

إن بعض العناصر والعوامل يمكن أن تُفسد فريقًا من الناس ولا تؤثّر في الآخر، ويمكن أن تكون مفيدة لارتقاء فريق ثالث وسيره في طريق التقرّب إلى الله. فعامِلا الفقر والغنى مثلاً مفسدان للبعض ومفيدان للبعض الآخر. هنا يظهر تأثير التفاعل بين إرادة الإنسان أو «ذاته» وشخصيته وفطرته وبين عوامل المحيط، وندرك أن المحيط لا يصبغ بصبغته الاجتماعية المعيّنة الإنسانَ الواعي المستقلّ والفاعل، وإنما فقط من خلال التفاعل بين الإنسان والمحيط يظهر أثرٌ ما أو آثار متعددة، وقد صوّر القرآن الكريم ذلك بقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾[1]، وبقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[2].

إن الفقر والمرض وساحة الحرب هي ثلاثة أوضاع بيئية يمكن أن تكون سببًا للزّلل، وتؤدّي إلى الانحراف العقائدي والأخلاقي أو الانحطاط. لكن في مثل هذه الظروف البيئية، وإزاء هذه العناصر نفسها للمحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي والمحيط الدولي، يظهر

---

(1) سورة الإسراء: الآيتان 83 و84.

(2) سورة العلق: الآيتان 6 و7.

رجال ونساء يقفون بصلابة في وجه العناصر المخلّة والمفسدة، يقاومونها ويحاربون بعزيمة قويّة لاقتلاعها: ... ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[1].

من تعاليم الوحي للإنسان اثنان يتعلقان بالمحيط:

1 ـ معرفة المحيط المقدّر أو الكون.

2 ـ العمل على تغيير المحيط الطبيعي والمحيط الداخلي والمحيط الاجتماعي والمحيط الدولي، والسيطرة عليها لنيل الكرامة والحرّيّة والارتقاء المعنوي والتقرب إلى الله، وبعد السيطرة على المحيط الاجتماعي إقامةُ الدولة الإسلامية لإيجاد المحيط الملائم للحياة وللارتقاء المعنوي أو التقرب إلى الله.

في علم الإناسة الوحياني الذي يشكّل عمارة العلم المتعالي: الإنسان موجودٌ واعٍ، عالِمٌ، مخيّرٌ، صاحبُ إرادة وقدرةٍ على الاختيار، إلى جانب تركيبته المعرفية المتعالية، وتركيبته الحياتية، وكذلك في المحيط بأشكاله الأربعة: الداخلي والطبيعي والاجتماعي والدولي، والأهم من كلّ ذلك في نظام الوجود. كما وأن إرادة الإنسان ـ أو «ذاته» الأصلية والحقيقية ـ لا تعمل مطلقًا بدون تركيبته، أو خارج المحيط بأنواعه الأربعة أو خارج نظام الوجود. ومن المحال أن تعطّلَ بنيتُه الوراثية أو المحيط الاجتماعي والمحيط الدولي عَمَلَ «ذاتِه».

إن الاعتقاد [كما يعتقد العامّة] بوجودٍ مستقل لكل من فطرة الإنسان ـ العناصر الوراثية ـ والمحيط الاجتماعي، والبنية الخاصة بالفرد أو الأفراد، نظريةٌ غير واقعية وغير عقلانية. إن هذه الأمور

(1) سورة البقرة: الآية 177.

الثلاثة تعمل مجتمعةً في تركيب متلاحم وتؤثّر في بعضها وتتأثر ببعضها. في الوقت الذي سَجن علمُ النفس الاجتماعي نفسَه في هذه الخرافة العاميّة وهي أن سلوكَ الشخص توليفةٌ من استعداداته الفطرية وتأثيرات المحيط، ترى المعرفة الدينية أن الإنسان في مسيرة التقرب وتكوين الشخصية المتعالية يثور على المحيط الاجتماعي الطاغوتي المليء حتى الجمام بالعناصر الفاسدة والعوامل المفسدة، ويتمرد على المحيط الدولي المشحون بالمعتدين والمحتلّين المستكبرين والمترفين، ويعمل على تغييره من خلال ثورة سياسية ملائمة ومُصلِحة. من كثرة هؤلاء الناس، وعملهم الإصلاحي المشترك والخيّر الذي هو مصداق قول الله عزّ وجلّ: ﴿...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تولدُ قوة سياسية عظيمة لا تُقهر، قادرة على أن تهزم الجيوش والمؤسّسات المخابراتية - الأمنية للطاغوت أو الاستعمار الخارجي. علم الإناسة الكوني لهؤلاء الناس يعلّمهم أن نظام الوجود محيط شديد الاتساع بالنسبة إلى أنواع المحيطٌ الأربعة المشهودة والمرئية، محيط لا ضفاف له، تعمل فيه قوى مقتدرة ومُصلِحة ومُنجية تُسمى الملائكة، ليلَ نهار وإلى أبد الآبدين، تساعد النساء والرجال الباحثين عن الحق والارتقاء والسمّو، وترافقهم وتمدّ لهم يدَ العون، وتدعمهم بالرحمة الإلٰهيّة الخاصّة التي تُنعشُ القلوب وتحيي الآمال.

يقرأون في كتابهم المقدّس: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[1]، ﴿...يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾. . . ﴿...أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]؛

(1) سورة المجادلة: الآية 21.

(2) سورة المجادلة: الآية 22.

في أثناء مسيرة التقرب التي هي التوأم لمقاومة عناصر المحيط الفاسدة والمفسدة يتقوّون بالهداية التي يُجزَون بها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾[1]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾[2]. ويقول المعصوم: «**فليكن أَمَلُك بما لا تنتظر أقوى من أَمَلِك بما تنتظر**»[3]. فموسى الكليم صعد إلى الطور علّه يأتي بقبس من نار، أو يجد بجانبها من يدلّه على الطريق، فرأى ما لا عينٌ رأت ولا خطر بباله أو ببال بشر، رأى نور الوحي من حيث لا يحتسب[4].

الوحي عنصر مساعد آخر للإصلاح، وُجد في الكون للتصدي للانحطاط، وللمستكبرين والمترفين المعادين للحقّ وللطاغوت وللمستبدين، وللمساعدة في سلوك الصراط المستقيم والتقرّب إلى الله، وسبيل الحرّيّة والثورة. وهو كتاب الله الذي يضمّ المعارف الدينية وينقلها إلينا، والحكمة التي تجذبنا نحو الله العزيز مبدأ العزّة المطلقة. تنزّل من لدن الله العزيز الحكيم حبلاً يشدّنا ويرفعنا إليه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾[5]، و﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾...[6].

إن الهدف من تنزيل القرآن تحرير الناس وإرشادهم إلى سبيل الله

(1) سورة يونس: الآية 9.

(2) سورة الطلاق: الآيتان 2، 3.

(3) الشيخ الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، الحديث 3609.

(4) سورة طه: الآيات 10، 13.

(5) سورة غافر: الآية 2.

(6) سورة آل عمران: الآية 103.

وصراطه المستقيم. ومن تعاليمه المبيّنة والموضّحة والهادية والمصلحة والمتعالية، تولد البيئة الملائمة والمساعدة للتقرب ولبناء المجتمع الصالح. إنّ أحد فروع علوم الوحي الثلاثة، ذلك الطرح المتعلق بالتنظيم الاجتماعي، أو بناء المجتمع الصالح والفضاء الثقافي لحياة الناس ولأفكارهم وسلوكهم، يحقّقه المؤمنون من خلال ثورة اجتماعيّة ـ سياسيّة تكامليّة: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، وَضَعَ مقرّراتِها اللهُ عزّ وجلّ، ونصَّبَ على رأس حكومتها إنسانًا مقرّبًا، رسول الله النبيّ الأميّ، يأمرهم بالحق وينهاهم عن المنكر.. ويضع عنهم أُصُرَهم والأغلال...

النبي، وقادة الثورات التكاملية، والمؤمنون من الناس مضطرّون من أجل إقامة الدولة الإلٰهية وحكم الصالحين، أن يتخطّوا العوائق ويحاربوا عناصر الفساد الاجتماعي والدّولي المتمثلّة بالمستكبرين والمترفين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾...[1]. ومن نافل القول أن المستكبرين والمترفين إنْ هم تسلّطوا وأقاموا دولة الطاغوت، ستكون لهم سلطتهم التشريعية التي تسنّ القوانين التي تتحكم بالناس وتجعلهم رعايا وأتباعًا وسلعًا، في مهاوي الذلّة والمهانة والأسر والموت المعنويّ. وقد نبّه مولى المتقين المجاهدين تحت رايته إلى أن الحياة تحت سلطة المستبدين موتٌ، والموتُ في ساحة الجهاد حياة: «**فالموتُ في حياتكم مقهورين، والحياةُ في موتكم قاهرين**»[2].

وقد جعل الله عزّ وجلّ تركَ إطاعة الطاغوت والتحرّر من سلطة الجبّارين الشرط الأول من شروط الإيمان: ...﴿فَمَن يَكْفُرْ

---

(1) سورة التوبة: الآية 73؛ وسورة التحريم: الآية 9.

(2) **نهج البلاغة**، ج1، ص 100.

بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وجود «الإرادة» لدينا، مختلف عن سائر أنواع الوجود، ووجود «الوعي» لدينا مختلف عن وجود الأشياء والحيوانات والظواهر والحوادث. كما أن موضوعات الوعي «وجودُها» أدنى من وجود الوعي، والعلاقة التي نقيمها بالموضوعات بواسطة وعيِنا، هي أساس معرفتنا بالمحيط، وبالمتغيرات التي تطرأ عليه.

إنّ العوالم التي خلقها ربّ العالمين، يمكن تصنيفها في ثلاثة عوالمَ على الأقل:

1 ـ العالم الواقعي [العيني]، المتاحةُ معرفتُه من خلال المشاهدة والملاحظة والتجربة.

2 ـ العالم الإنساني.

3 ـ عالم الكمال المعنوي. هذه الأنواع الثلاثة من الوجود، في ثلاثة حقول مختلفة، لكلٍّ منها صفاته الخاصّة، لكنها تتفاعل في ما بينها في وجود الإنسان في أثناء مسيرته تقربًا إلى الله. ولم تتمكن الفلسفة من تقديم فهمٍ منطقي لأنواع الوجود الثلاثة كلّها.

فالكمال المعنويّ لا يظهر إلّا لدى الإنسان الذي ارتفع عن المستوى العادي لعامّة الناس، بشكل خلّاق، وبفكّ الأصر والأغلال، وإزالة العوائق، واكتشاف المحيط والسيطرة عليه والتحرر فيه. نحن في حال نيلنا الكرامةَ في نظام الوجود، نجرّب الكمالَ المعنويّ، الذي هو وجودٌ أرفع من الوجودَيْن الآخرَيْن، ونصل من

---

(1) سورة البقرة: الآية 256.

خلال هذه التجربة إلى قمة وجودنا الطبيعي ووجودنا الإنساني، فنعي استقلاليّتنا وندرك في الوقت ذاته، أنّنا غير قائمين بذاتنا، وأنّنا من ما وراء أنواع الوجود التي نعرفها أعطينا ذاتنا، في هذا المقام لا نعثر على الحقيقة والواقع ولا على العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي، وإنما القدرة على اختيار الحياة الطيّبة، وسبيل التقرّب، أو القدرة على السيطرة على المحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي والمحيط الداخلي، ولا نعثر على المعرفة وإنما ندرك قدرتنا على الاختيار. نقف تجاه أنفسنا لا كإنسان عالِم واعٍ، وإنما كإنسان قادر أن يتخذ موقفًا تجاه العوامل المختلفة في المحيط بأنواعه المختلفة، للاستفادة من بعض العناصر، وإزالة البعض الآخر، حينئذ نعِي هذه الحقيقة الجليلة، وهي أننا وجودٌ غير ما نحن عليه، لكننا نقدر أن نكونه ويجب أن نكونه. وما أن نعيَ ولادتنا الجديدة بإرادتنا وبتصميمنا، نقاوم أنواع الخداع التي تُخفي واقعنا وقدراتنا، ونبحث باستمرار لحظةً بلحظة عن جواب لسؤال: من نحن وماذا نحن؟ ونعثر على الجواب، بتطويع غرائزنا ودوافعنا العضوية وجسدنا، وإعادة النظر في الدور الذي نؤدّيه في المجتمع... نصحو من نوم الغفلة، وندرك أننا إنْ لم نستخدم قدراتِنا الذاتية للارتقاء والسموّ، فإننا سنبقى داخل الأسوار الضيّقة للموجودات الطبيعية «شيئًا من الأشياء». إنَّ التفكير في هذا الأمر، واتّخاذ قرار الارتقاء والحرّيّة والأعمال التي يجب أن ننجزها في هذا السبيل، يرفعنا عن مستوى الطبيعة والأشياء، ويدفعنا إلى التحليق؛ فنفرد جناحينا من خلال إحساسنا بأننا «موجود ممكنٌ»، «أنا» يمكنها أن تصبح ما يجب أن تكون عليه.

إنّ تعرّف واقع المحيطات الأربعة يجعلنا نقبل وجودنا، لكننا نميز العوامل المفسدة من العوامل المساعدة والمفيدة. لا نستسلم

للمجموعة الأولى ولا نخضع لها ولا نسمح لها بتحديد مصائرنا؛ ونأخذ بالاعتبار في قراراتنا جميع العوامل المحيطة، ونتخذ بدراية موقفًا بصدد كلّ منها؛ لا نخضع لأوامرها، وإنما نحن الذين نأمرها، نرى إليها ظروفًا نستخدمها لمصلحتنا، أو نعمل على طردها وتخطّيها، وفي كل الأحوال يكتمل في هذا السبيل مسار تحررنا فنرتقي ونسمو. من داخلنا تنبع قراراتنا وخياراتنا، ونتائجها تعود بالنفع علينا، فنصبح ما أردناه. هذه القرارات والخيارات حركة تحدث في حال اليقين والوعي العميق من داخلنا باتجاه الخارج، فتهبُنا التحوّلَ المنشود، تنتزعنا مما نحن عليه، وترفعنا درجةً لنكون غير ما يمكن أن يقال عنا، وأرقى من الاسم الذي يمكن أن يُعطى لنا، وأرفع من الصفة التي يمكن أن نُعرف بها.

نحن في مسيرة التقرب لا نستقرّ على حال. وجودٌ في حالة الطيران، هو في الأساس طرحٌ يمكن أن يُعرَف بمقاصده، يرتفع نحو نوع من الوجود متعالٍ جدًّا، ليصبح شبيهًا به. هذا المشروع الأساسي الذي هو خيارنا يتم تنفيذه بواسطة القرارات التي يعدّ كل منها طرحًا فرعيًّا، يحمل علامة الطّرح الأساسي.

الفصل الرابع

حدودُ التنوُّع والمصير

نحن على ارتباط بالمحيط بأنواعه الأربعة، نتفاعل معها باستمرار. نبحث فيها لنفهمها، ولنغيّر فيها ونجعلها ملائمة، لنصل إلى الحرّيّة والكمال. إنها «المحيط المختار» بالنسبة إلينا، المحيط الذي تعمل فيه قدراتنا فتتفتّح وتثمر.

لكنْ هنالك حدودٌ لقدراتنا، هي الحدود التي تقطع طريق الحركة والنشاط والتقدّم وتقفلها. إن هذه الحدود تحدّ من الإمكانات التي وهبها الله لنا.

حين نصل إليها نعِي «المحيط المقدّر». نخشع أمام جلال خالقه وعظمته، ونسبّح بحمده. من خلال وعينا لحدود قدراتنا وإمكاناتنا هذه، نجد أنفسنا حائرين في جزيرة صغيرة كورقة في أوقيانوس واسع غير متناه. نرى أنفسنا واقفين في نقطة بعيدة جدًّا في زاوية، فوق ذرَّة من فضاء هذا الكون الذي لا ضفاف له، ونعيش في لحظة من تاريخ البشر؛ وتاريخُ البشرِ لحظةٌ من تاريخ النباتات والحيوانات، وهذا الأخير ليس أكثر من لحظة مقارنةً بالتاريخ البعيد والطويل للطبيعة.

من ناحية أخرى نحن تركيب حياتيٌّ، وفي الوقت نفسه تركيبٌ معرفيّ متعال، أي لديه قابلية الاعتلاء والسموّ فوق مستوى الطبيعة، بحيث إنّنا في الوقت الذي نحن فيه من الأحياء قادرون أن نسموَ فوق الطبيعة، وأن ننال القيمة والكرامة اللّتَيْن لا يمكن أن ينالهما أيُّ موجود آخر في الكون.

انطلاقًا من هذا الرأي القائل بأننا نوعٌ من الحيوان ـ كما يعتقد كثير من العلماء ـ ننمو طبيعيًا، نتألم، نمرض، نشيخ ونموت؛ وقد ظهرنا كأيّ موجود لا روح فيه أو لديه روح، ونزول بعد مدة قصيرة محدودة.

هذه الولادة والموت، كالحوادث التي تَعرِض للنباتات والحيوانات، جزء من المجيء والذهاب اللامتناهي الذي يصبغ التاريخ الطبيعي، والذي يتكرر على وتيرة واحدة رتيبة. وبما أن الحيوانية جزء من طبيعتنا نقوم في الحياة بأعمال وحركات هي «عَرَض الحياة الدنيا»، أيْ أشياء لا حصر لها، لكنّها في المنزلة الدنيا، سطحية وعابرة وزائلة، وأمور تتكرر ويطويها النسيان، وتاليًا هي لا قيمة لها ولا كرامة ولا معنى.

الواقع الخارجي والواقع الداخلي ـ أو بنية الإنسان ـ هما اللذان يشكّلان الحدود التي تفصل المحيط الذي نختاره عن المحيط المقدّر لنا.

في المحيط المختار نعيش أوضاعًا توفّر لنا إمكانات السعي والاجتهاد، وتحقيق الرغبات، وإرضاء العلائق، وتغيير المحيط. هذه الإمكانات تتوافر ثم تذهب مسرعةً او متأخرةً، وعلينا أن نغتنم وجودها، ونستغلّها من أجل تحرّرنا وتطوّرنا وتعالينا.

لكنْ هنالك أوضاعٌ أيضًا لا يدَ لنا فيها، ولا مفرَّ منها، ثابتةٌ لا يلحقها أيّ تغيير، هي التي تُعدُّ محيطَنا المقدّر.

إن وعينا بـ «المحيط المقدّر» مقدِّمة لمسيرة تقرّبنا، فحين نعِي حدود وجودنا، ندرك أننا نحن وكلّ من وما يوجد محاطون بمحيط شامل يَسع الوجود: ﴿...إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[1].

إنه محيط بالأشياء والأمور كلها: من حيث الوجود، ومن حيث الإحاطة العلميةِ، وأيضًا من حيث قدرته عليها، وهذه وجوه ثلاثة لحقيقة واحدة. هو محيطٌ بالوجود لأن وجوده سابق لأيّ وجود وبعد كلّ وجود، ثابت قبل ثبات أيّ شيء، وثابت بعد زوال كلّ شيء.

نحن ـ كبشر ـ كوننا مرتبطين بالمحيطات الأربعة ومتفاعلين معها، دائمًا في حركة وردّ فعل وتفاعل. في حال مقاومة للعوامل المفسدة والمخلّة بالحياة وبالارتقاء والتقرب، وفي حال تعاون ووحدةٍ ومساعٍ مشتركة؛ وفي حال تأثير في المحيط وتأثُّر به، وتاليًا في حال تغييرٍ للذات وللآخرين وللعوامل المختلفة في المحيطات الأربعة.

نحن دائمًا في وضع من الأوضاع: بعض تلك الأوضاع يتغيّر تلقائيًّا أو بفعل الآخرين، وبعضها نحن الذين نغيره. لكنْ هنالك أوضاعٌ ثابتة لا تتغير، لوجودها دلالةٌ حتمية على حدود قدراتنا التكوينية وقدراتنا المكتسبة. ووعينا لهذه الحدود يجعلنا حكماء، ويمكن أن يكون مقدمة لارتقائنا وتقرُّبنا من الله عزّ وجلّ.

ما ورثناه وما هو مقدّر لنا هو زمان ولحظة مولدنا، وابتلاؤنا بالمرض والألم، وشيخوختنا وموتنا. إنّ عملنا السيّء يؤدّي إلى انحطاطنا وبعدِنا عن الله، وعملنا الخيّر يهبنا الارتقاء والقرب من الله

(1) سورة فُصّلت: الآية 54.

«من عمل خيرًا فلنفسه، ومن عمل شرًّا فعليها»، أو أننا بعد الموت نعيش حياة برزخية هي ما صنعناه لأنفسنا، ومتناسبة بدقة متناهية مع ذواتنا، وبعد أن ينهار عالم الطبيعة ويقوم عالم القيامة تستمرّ تغييرات محدودة في هذا السياق؛ وتشبهها الأوضاع الثابتة التي لا تتجزأ، وهي حدود لا يمكننا الفرار منها أو تخطّيها وتجاوزها، ولا نحن بقادرين على تغييرها أو التخلص منها: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾[1].

هذه الأوضاع التي تشكّل حدود وجودنا، موقعُها في نظام الوجود، ونحن نتعامل معها في المحيطات الأربعة، وفي نشاطنا في عالم الطبيعة.

إن ما يمكننا أن نفعله تجاه الأوضاع الوجودية أو حدود إمكاناتنا هو أحد أمرين: إما أن نكون عنها غافلين أو أن نعيَها؛ وأحد عملين: أن نفكر بها أو أن نؤمن بها. فإذا نحن أغفلنا واقع حدود وجودنا وكفرنا بها يكون ذلك دليلاً على أننا اخترنا لأنفسنا إحدى الحيوات الدنيا الحيوانية المحضّة، أو أدنى من ذلك، وحياة الترف، والاستكبار. لكنْ إنْ نحن وعَيْناها، وآمنا بها نخرج من الظلمات إلى النور وننال نصيبًا من الحكمة. حينئذ يصبح بإمكاننا أن نحارب العوامل المفسدة والمخرّبة والمخلّة بالحياة في المحيطات الأربعة، لنكسر القيود ونفكّ الأصر والأغلال التي تكبّل وجودنا، ونطوي المراحل لنيل الحرّيّة والتقرب من الله.

---

(1) سورة الانشقاق: الآيات 6 ـ 15.

إن عبور الطريق المستقيم نحو الحرّيّة والارتقاء والتقرب، قرينٌ لتجربة الخلق والإبداع والإحسان، والحُسن والكمال، والطّهر والقدسية، والتعالي والمتعالي، فيزداد وعيُنا بهذه الأمور، ويتعمّق ويتوسّع. نجرّب الفوز والفلاح، ولا نشعر مطلقًا بما يشعر به أولئك الذين تجاهلوا حدود الإمكان وأنكروها من إحساسٍ بالانكسار وفقدان للأمل، وإنما نشعر على عكسهم بالانسجام والتناغم مع عالم الوجود ونظام الكون ومع ذلك الخلود.

الذين ينكرون واقع حدود وجودهم، ويجهلونها ويتجاهلونها ويكفرون بها يصبحون غافلين، يعمهون طيلةَ عمرهم ـ طال أم قصُر ـ في الوهم والخيال وخداع الذات، ويصابون باليأس والذلّة في أسر القبضة الشيطانية للمستبدّين. المكان الوحيد الذي يمكن أن يلجأوا إليه من شرّ عوامل المحيط المخلّة ومن ظلم المستكبرين وأذاهم هو حضن الخيال، وهو المكان الذي سمّاه فلاسفة الأَسْر والذل أسماء خادعة: سماه الرواقيون «استقلال الذهن»، والبوذيون «النيرفانا» أو النفس الكونية: وسمّاه آخرون الخلأ ـ الملأ، أو «الصمتَ والسكينة اللذين لا تعكّرهما تصاريف الحياة الدنيا وتزاحم سائر الموجودات الحيّة»؛

هذه كلّها أشكال مختلفة من التعبير عن تجربة واحدة، وهي الهرب من الواقع الحاضر، وعوامل المحيط المؤثّرة والمخاطر الناجمة عنها، نعم الهرب إلى أعماق الذهن والخيال، بدافع من شعور هابط هو مجرد رغبة شديدة ومُرضية للعودة إلى رَحِم الأمّ الدافىء. هذا الشعور نقطة مقابل المشاعر السامية التي يصنعها الإنسان لنفسه وسعيه الفطري نحو الحق، والذي هو عشق لفتح المحيط الداخلي والخارجي، عشقٌ للتغيير والثورة والخلق والإبداع والتشبّه بالخالق.

إن لفظة «المصير» تدل على واقعين مختلفين: أحدهما المقدرات التي يعبّر عنها بـ «الضرورة» أو الجبر، والتي تشكّل بالنسبة إلى الإنسان حدودَ قدرته على الاختيار وأعماله المسؤولة وإرادته، والثاني الحوادث والآثار والأعمال التي تظهر بمددٍ من قدرته التكوينية والموروثة التي تسمى الإرادة أو الحرّيّة والقدرة على الاختيار.

على الرغم من أنّ حركة الإنسان وسلوكه وحياته تتشكل في دائرة التقدير الإلٰهي والضرورة التكوينية والرابطة العلّيّة أو حدود الوجود، إلّا أنّ ما يفعله بإرادته ومسؤوليته ويوجِده في المحيط: الطبيعي والداخلي والاجتماعي والعالمي، إنما هو آثار ذاتِه وعملُها، هذا العمل الذي تترتّب عليه آثارٌ ونتائج. إنّ ما نعنيه بلفظة «المصير» في هذا البحث، الآثار والنتائج المترتبة على عمل الإنسان والتي تدمغُ مستقبلَه وخاتمةَ عمله.

كان المشركون في الجاهلية يعتقدون أن مستقبل الإنسان أو مصيره وما سيعرِض له من أحداث، مرتبطٌ باتجاه طيران الطائر يمينًا أو شمالاً (يُمنًا أو شؤمًا). في جاهلية الحداثة العامل الوحيد الذي يعيّن مصير أيّ شخص هو «البيئة الاجتماعية» التي ولد وعاش فيها. في هذه الأيديولوجية وفي علم الإناسة الخرافي، ذهن الفرد صفحة بيضاء، تنطبع عليها الموضوعات المتعلقة بالمجتمع والثقافة السائدة، وما من دور لذاته. لقد أكد الليبراليون منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم على تشكيل الإنسان والتأثير الحاسم والجبري للعوامل المحيطة في شخصيته. هذه الرؤية إلى العالم والإنسان خرافية وغير منطقية وتعيق ارتقاء الإنسان وتعاليه والتطور المعنوي للمجتمع، وليست أفضلَ من رؤية الجاهلية العربية بالنسبة إلى العالم وإلى الإنسان.

لقد أبطلت رؤية الوحي إلى العالم وإلى الإنسان هذه

الأيديولوجيات والمعتقدات، فقد قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

إنّ هذه الآياتِ ونظائرها التي تتضمن الرؤية التوحيدية إلى العالم وإلى الإنسان، تدل على أن مصير كلّ إنسان وقربه من الله أو بعده عنه تعيّنه أعماله الإراديّة «طائر في عنقه»: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3].

هنا يُطرح السؤال التالي: ما هو الدور الذي يؤدّيه «عنق» الإنسان ـ أكان «في القيد» أم كان «حرًّا» ـ في هذه السنّة التكوينية في تعيين المصير والعاقبة؟

الجواب عن هذه المسألة الفلسفية نجده في سائر أجزاء الرؤية التوحيدية إلى الإنسان. هنا يعلّمنا الله عزّ وجل أنّ مصير أيّ شخص وعاقبته وآخرته رهنٌ بالقيود التي يحملها «في عنقه»، وبـ «تحرره» من هذه القيود التي تقسم إلى نوعين: «الأصر» و«الأغلال». الأولى هي الإلزامات السياسية ـ الحقوقية ـ القانونية، التي نسميها الموجبات والواجبات، والثانية أنواع «القيود والسلاسل»، التي تقيّد أجسادنا، وتضع السدود والحواجز والموانع والعوائق في طريق تطور الإنسان وارتقائه وتعاليه، وكذلك في طريق المجتمع والبشرية جمعاء.

---

(1) سورة الإسراء: الآيتان 13، 14.

(2) سورة النجم: الآيات 39 و40.

(3) سورة المدّثر: الآية 38.

الفصل الخامس

الحرّيّة في المحيط الطبيعي، الدولي، والداخلي

تعريفٌ أكثرُ دّقةً للحرية:

الحرّيّة هي حالة الوجود وكيفية الحياة بالنسبة إلى الإنسان ـ الفرد ـ في المحيط الطبيعي أو الداخلي أو الاجتماعي أو الدولي، كذلك فإن الحرّيّة هي حالةٌ لأمّة وكيفيّةٌ لمجتمع في المحيطَين الطبيعي والدولي. وهي أيضًا حالة وكيفية للبشرية ـ جنس البشر ـ في المحيط الطبيعي.

الحرّيّات سواء كانت متعلقة بالإنسان كفرد أو متعلقة بالشعب أو المجتمع أو البشرية هي نقيض حالاتٍ وكيفيات معيّنة أخرى يُعبَّرُ عنها بكلمة «الأسر»، أو بصفتي الأصُر والأغلال. بحيث إنّ كلّ حالة من حالات الحرّيّة تقابلها حالة خاصة من حالات «الأسر»، ويوجد حالات أسر بعدد حالات الحرّيّة.

في معظم اللغات تُطلق لفظة «الحرّيّة» أو «الخلاص» على حدث انتقال الفرد أو الأمّة أو البشرية من حالة الأسر إلى حالة من الحرّيّة

الخاصَّة المناقضة لها، وكذلك على الاستقرار في تلك الحالة الأعلى قيمةً... إن المعرفة الأدق والأوضح لـ «الحرّيّة» تستدعي معرفةً دقيقة وواضحة لـ «الأسر».

دليلنا على هذا الادعاء، أن ما يقصده عامة الناس وحتى العلماء من لفظة «الحرّيّة»، هو حدث الخلاص من القيد والأسر، وأن يكون الإنسان مخيّرًا وغيرَ مجبرٍ على طاعة أحد، أو خاضعًا للضغوط، أو مجبرًا على القيام بمهامّ جائرة[1]. بعبارة أوضح الخروج من حالة الأسر أو التواجد خارجها.

تعريف الأسر، أو الوجود في القيد وتحت الضغط:

الأسر هو بالنسبة إلى الإنسان حالة في المحيط أو ظروف تضع الحواجز والعوائق التي تسدّ طريق الحياة ـ إشباع الغرائز العضويّة ـ أو الحياة الإنسانية أو الحياة الطيبة، أي أنّ رشده ورفعته لا يتحققان إلّا بتخطّي تلك الحواجز وتهديم تلك السدود وإزالة تلك العوائق. بعبارة أخرى، «الأسر» حالة بالنسبة إلى الإنسان والمجتمع أو البشرية، تُفسد فيها الحواجز والعوامل المحيطة أمرَ الحياة أو أمرَ ارتقاء الإنسان وتعاليه...

عوامل الخلل أو التي تؤدي إلى الاختلال والانحطاط، فضلاً عن كونها متنوعة من حيث ماهيتها، هي متنوعة أيضًا بحسب المحيط الذي وجد فيه الإنسان، ومن هذه الناحية فإنّ تنوع عوامل المحيط هو تنوعٌ مضاعف.

بحسب التنوع المضاعف للعوامل المخلّة والمعيقة والمقيّدة،

---

(1) انظر: بوليوس غولد وويليام. ل. كولب، **معجم العلوم الاجتماعية**، منشورات مازيار، ص 6.

هنالك أنواع من العوائق والموانع والمشاكل والمفاسد، وبعدها حالات من «الأسر»، وتاليًا حالات من «الحرّيّة»، وحركات ارتقاء وانتقال من حالة الأسر إلى حالة «الحرّيّة» التي نسمّيها الفوز أو النجاة؛ وبما أن الله عزّ وجل خلق الإنسان ذا إرادة أيْ قدرة على انتقاء واختيار عمل واحد من بين أعمال عدّة، ونمط واحد للحياة من بين أنماط ستَّة ممكنة، فإنّ بإمكانه أن يرتقيَ من حالات الأسر والقيد والخضوع إلى حالات الحرّيّة والارتقاء والرفعة، كما أنه قادرٌ على العكس أن يهبط من كل حالة من حالات الحرّيّة إلى الحالة المضادة لها من حالات الأسر.

إن حالة الأسر بالنسبة إلى الإنسان، أو الفئة الاجتماعية، أو الشعب أو الأمّة أو البشرية تحدث حين تتعرض حياة هؤلاء أو ارتقاؤهم المعنوي للتهديد أو الاختلال أو الإفساد أو الإعاقة. كذلك فإنّ الحرّيّة أو الخلاص من الأسر والنجاة والارتقاء رهنٌ بإزالة العوائق وتحطيم الحواجز والسدود التي تقف في وجه الحياة بأشكالها المتعددة، وتعيق الارتقاء المعنوي الذي هو مِيزة الحياة الإنسانية والحياة الطيبة.

تعريف جامع مانع للحرية:

الحرّيّة هي عبارة عن الظروف المحيطة التي تخلو من الأغلال والقيود والضغوط والإفساد والعوائق، التي تحدُّ من إشباع الحاجات العضوية (العيش)، وإعمال العقل السليم والفكر والتعقل (الحياة الإنسانية)، وإنجاز الأعمال الصالحة، والارتقاء، والتعالي أو التقرّب إلى الله (الحياة الطيّبة)، وفيها تُتاح الفرص اللازمة للعيش وللحياة الإنسانية والحياة الطيبة؛ بحيث يمكن بسهولةِ الارتقاءُ من العيش إلى الحياة الإنسانية والسموّ تاليًا إلى الحياة الطيّبة.

فضلاً عن «الظروف المحيطة» يمكن عدّ الحرّيّة قدرةَ الإنسان ـ أو الفئة الاجتماعية أو الشعب أو الأمة وحتى البشرية ـ على الحياة والارتقاء المعنوي، بإزالة الحواجز والعوائق والعوامل المخلّة والمفسدة في المحيط الداخلي، والطبيعي والاجتماعي والدولي.

أ ـ الحرّيّة في المحيط الطبيعي:

على الرغم من أن المحيط الطبيعي يعدّ البيئة التي يعيش فيها الإنسان والأمّة والبشرية، والأمّ الحاضنة المُحِبّة، إلّا أنه أيضًا مركز الخطر بالنسبة إليهم، ويجب أن يصمدوا أمام عوامل الهلاك والمرض والقوى التي تهدّد ذواتهم، وأن يتحرروا من آثارها القاتلة وضغوطها التي تفوق طاقتهم ليعيشوا بأمان.

هذه العوامل المهلكة والقوى المدمّرة للطبيعة التي تقيّد حياة الإنسان وتضعه تحت الضغط الشديد وتستنفد قواه، تشكل «الوجه السلبي» لنظام الطبيعة، المناقض لنظام الارتقاء المعرفي الإنساني. إنَّ الطريق إلى نيل هذه الحرّيّة توفّرها العلوم الطبيعية التي ينتج عنها التفوق الصناعي والتقني. ليس للدين حكم خاص بالنسبة إلى العلوم، وإنما هو أوصى بإنجازها، وشجّع عليها، ودَعَمَها كجهد مفيد وضروري...

نحن نُعَدُّ في «علوم الحياة» مخلوقاتٍ حيّةً وجزءًا من الطبيعة، ... تحثّنا محركاتنا العضوية التي هي البديل من الغرائز الحيوانية، على تلبية احتياجات الحياة، وعلى العكس من سائر الحيوانات لا نلبّي هذه الاحتياجات على نحو واحد ومتشابه، وإنما كل فرد قادر على تلبيتها بأسلوب خاص يختاره من بين أساليب متعددة. وهذا ما يؤدي إلى تعدّد أنماط الحياة، وتعدّد أنواع البشر.

ولا يقتصر الفرق بين الإنسان والحيوان على كيفية تلبية الغرائز والحاجات، وإنما يكمن في كيفية التفاعل مع المحيط ومواجهته.

الحيوان يتكيف مع ظروف الحياة، ولا يغيّر ظروف المحيط، أما الإنسان فبإمكانه أن يعيش بأسلوب الحيوان في البيئة المحيطة، وهو قادر أيضًا أن يُحدِثَ ثورةً فيها وأن يغيّرها، ومن خلال هذه الثورة تتحقق حرية البشر في المحيط الطبيعي. وما ذلك إلّا لأن الإنسان يمتلك ـ فضلاً عن بنيته الحياتية ـ بنيتيْن فطرّيتيْن أخرَيَيْن هما:

1 ـ البنية المعرفية.

2 ـ بنية المعرفة المتعالية[1].

هاتان البنيتان هما اللتان تتيحان للإنسان أن يصنع لنفسه تاريخًا متميّزًا ومختلفًا عن «التاريخ الطبيعي». في هذا التاريخ على العكس من «التاريخ الطبيعي»، لا تعنينا فقط الوقائع الخارجية، وإنما نتعرف التغييرات التي أحدثها الإنسان في محيطه الداخلي: بالتربية والتهذيب وإيجاد العلاقات وتكوين الشخصية، وندرك كذلك عظمة الكرامة في نظام الكون، ونُحني هاماتِنا لها تعظيمًا وتكريمًا. في هذه الساحة يرغب الإنسان في الارتقاء بذاته، وفي استخدام عقله لتتَّضح أمامه البداية والنهاية، ليعثرَ على طريق العروج ويعبرَها. يعي أن الأشياءَ زائلةٌ لا تدوم، ويعي أنّه ميتٌ لا محالة، وأن لكل شيء ولكل شخص في هذه الدنيا زمانًا مقدّرًا وأجلاً معلومًا. حين يصل إلى هذا الحد يعي مفهوم الأبدية في الزمان، ويجرّب انتهاء الزمان، وينضمُّ وعيُه بالصّيرورة والارتقاء إلى وعيه بالخلود.

لا يعي فقط نفسه وجودًا متميزًا مقامُه من مقام الآخرين ومن الأشياء، قادرًا على تذكر الماضي وتصوّر المستقبل، وإنما يعي أيضًا

(1) انظر: **الإرادة المعطوفة على الحياة الطيبة**، ص 80 و105، 108.

قدرته على تمييز الأشياء الموجودة في المحيط الطبيعي من بعضها البعض، وتصنيفها، وتحديد العوامل الملائمة للحياة والعوامل غير الملائمة والمضرّة...

بتنا جميعًا نعلم اليوم أن المراحل البدائية الطويلة من تاريخ البشر هي عبارة عن:

1 ـ مرحلة تجميع الطعام.

2 ـ العصر الرعوي.

3 ـ عصر الزراعة.

كانت الطبيعة باستمرار محيط العيش أو الأم الحاضنة بالنسبة إلينا، وساعدتنا مصادرها الطبيعية في مواجهة العوامل المخرّبة والمهلكة الموجودة فيها، ومن هذه الناحية تعدّ عاملاً قادرًا ومؤثّرًا في تأمين الحرّيّة والأمان لنا. لقد أمر الله تعالى الإنسان مرارًا وتكرارًا أن ينظر في خلق السماوات والأرض وكيف خلقها ونظمها وقدّرها وجعلها بإمرتنا ولفائدتنا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾...[1] مع ذلك فإنّ البيئة الطبيعية كالبيئات الأخرى الاجتماعية والدولية والداخلية، لا تخلو من العناصر المهدّدة للحياة، التي حاول الإنسان طيلة تاريخه أن يحميَ نفسه منها، وأن يبتكرَ الوسائل لمقاومتها، كما أنه اكتشف تدريجيًّا الوسائل والطرق التي أتاحت له الاستفادة من عناصرها وصولاً إلى عصر الصناعة، فعصر التقانة...

---

(1) سورة لقمان: الآية 20؛ سورة النحل: الآية 14؛ سورة ص، الآية: 36 في الكلام على داود (ع)؛ سورة الجاثية: الآية 12؛ سورة النمل: الآية 61؛ سورة الحجّ: الآية 36؛ سورة يس: الآية 71.

إن توسع الصناعة والحجم العظيم للمنتوجات الصناعية اجتاح حدود البلاد والقارات. . . وتقاسم المنتجون والمستهلكون بشكل معين العمل العالمي، لكنْ مشاركةً ظالمةً واستثمارية. وقد عبّر ماركس وانغلز عن ذلك على النحو التالي: «لقد أعطيَ للإنتاج والاستهلاك في كل بلد صبغة عالمية. . . وحُرّرت الصناعة من قيودها الوطنية. لقد قضي على جميع الصنائع الوطنية والمحليّة القديمة، التي حلّت محلها الصناعات الجديدة، التي أصبح تداولها مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى جميع الشعوب المتحضّرة، الصناعات التي تَستخدِم فضلاً عن المواد الخام المحليّة، الموادَّ الخام التي تُستورد من المناطق البعيدة، الصناعات التي تُستهلك ليس فقط في الداخل، وإنما في كلّ زاوية من زوايا المعمورة».

إنّ التقانة من وجهة نظر سياسية واجتماعية ليست حيادية وليست حاسمة، وأنا لا أوافق بعض أصحاب الرأي كجورج سورل وفيلن اللذين يعتقدان أنه بالإمكان من خلال النمو الكامل لمصادر التقانة والاستفادة كما يجب من توسعها مع الاستغناء عن الفائض والإسراف، الوصولُ إلى أوج الكمال. لكن لا شكّ في أن تأمين بنيان التطور المرادف للحياة لا يتحقق إلّا بواسطة التقانة.

التقانة بحجمها الضخم تستوجب التبعية الكاملة للمجتمع الصناعي بآلية شديدة التعقيد ونمطية لا يمكن أن تعمل إلّا في نظام شديد التنظيم والتصنيف ومركب من سلسلة من المراتب. هذا النظام بغضّ النظر عمَّن يكون المالك لوسائل الإنتاج، يجب أن يرسّخ لدى الأفراد صفاتِ الانضباط والطاعة والتبعية للرئيس أو المسؤول، سواء كان هذا المسؤول هو صاحب رأس المال، أو مديراً حكوميًّا في النظام الشيوعي، أو المدير العامل في شركة مساهمة عامة. في كل الأحوال، فإنّ الفضيلة أو القيمة التي ينصاع لها الأفراد هي عبارة

عن الانضباط والطاعة والتبعية للشخص الممثِّل للسلطة المالكة. بناء على ذلك فإنّ ازدهار الصناعة وتاليًا التقانة بحجمها الضخم الذي هو ميزة عالم اليوم، يربّي في رحمه وجوبَ الطاعة والتبعية للطاغوت، المستند والمعتمد على سلطة المِلكيّة، التي كان يعتمد عليها زعماء القبائل الوثنية في العهود القديمة في آسيا المركزية وفي روما وبلاد اليونان وإيران والهند، والتي كان يعتمد عليها الملوك والأباطرة. إن التبعية والطاعة المطلقة للرئيس كضرورة حياتية، مناقضتان لحرية الإنسان في المحيط الاجتماعي.

في المجتمع التوحيدي أو المؤمن، التي لا تعدُّ فيه مِلكية وسائل الإنتاج وإمكانات الحياة سلطةً بل مسؤوليةً وتكليف، ولها شروط أساسية منها: البلوغ والعقل وحسن النية وعدم إيقاع الضرر بالغير، تترافق التقانة الضّخمةُ الحجم مع آثار وتبعات مضادّة كليًّا للتبعية المطلقة، تتلخص في التعاون والاتحاد والإحساس بالمسؤولية، والاعتماد على النفس، وتاليًا الكفاءة الوطنية وخدمة الخلق والمستضعفين لإرضاء الله والتقرب إليه.

تقويم هذه الحرّيّة:

إنّ أهمَّ شرط من شروط التقويم وجود المعايير المناسبة للأمر أو للشيء المطلوب قياسُه، ودقّةُ هذه المعايير. الحرّيّة تطورٌ وقيمة معنوية أو فضيلة. التطور الكيفي الذي يصيب الفرد أو الأمّة أو البشرية، والانتقال من حالة أو وضع أدنى إلى وضع أعلى أو أرفع. التطور قيمة معنوية وفضيلة يحصّلها الفرد، والتطور الكيفي الذي يصيبه الفرد أو المجتمع متفاوت الدرجات. فضلاً عن تعدّد أنواع التطور الكيفي باتجاه الكمال ولكل نوع منها قيمة أو فضيلة مختلفة خاصة به؛ القيمة والفضيلة المرتبطة بالحرّيّة. كم من القيود التي

تكبل الإنسان أو المجتمع تَكسر؟ وكم عاتقًا تزيل من طريق التطور والتعالي؟ وما هي الإمكانيات التي تتيحها للنموّ وللتعالي؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، يجب أن نعلم أولاً أننا نحن قبل أيّ شيءٍ كائنٌ حيٌّ له بنيتُه الحياتية، وبنيته المعرفية المتعالية المبنيّة على القابلية للسموّ فوق بنيته الحياتية أو الطبيعية، ولهذا السبب فإنّ ارتقاء الإنسان وسموّه منوط ببقائه ككائن حيّ.

الإنسان ككائن حي طبيعي لا يعرف ذاته، إنما بنيته المعرفية هي التي تتيح له تعرّف نفسه والوجود والأحداث، وفوق ذلك القدرة على اتخاذ القرارات لكيفيّة تنظيم شؤون الحياة والموت، المحبّة والعِبادة، الكره والنفور، وتنظيم المشاعر والانفعالات، واختيار الطرائق الملائمة لكل منها، لنعيد خلق «أنفسنا».

إنّ أهمية حياتنا مرتبطة بهذا الواقع الذي هو أساس التطور ومقدمة السموّ أيِ الارتقاء عن مستوى الحياة الحيوانية إلى الحياة الإنسانية، ومن ثمّ إلى الحياة الطيّبة.

إذاً وجود أيِّ عائق في طريق الحياة يخلّ بالمقدمة الضرورية للتطور والسموّ. والحرّيّة في المحيط الطبيعي تستمد قيمتها من الارتقاء فوق مستوى العيش أو الحياة الحيوانية، وهي البوابة التي نخطو من خلالها في مسيرتنا الإنسانية، لعبور الصراط المستقيم تقرّبًا إلى الله تعالى. إن السيطرة على الطبيعة هي التي تفتح الطريق نحو الكرامة في نظام الوجود، وهذا هو معنى الحرّيّة في المحيط الطبيعي.

إن الحرّيّة في المحيط الطبيعي أو الأمن الحياتي شرطٌ من شروط الحصول على سائر الحرّيّات في سبيل التقرب، وليست الشرط الوحيد. وما أكثر الذين جعلوا من السيطرة على الطبيعة وسيلةً

لتخريب البيئة وخطرًا على البشرية وعلى الصلاح والخير والفضيلة بالنسبة إلى الأفراد. كان ولا يزال هنالك مترَفون سخَّروا ويسخِّرون قدراتِهم وعلومَهم ومهاراتِهم ضدًّ أنفسهم وضدّ الآخرين. هدموا منزل بنيتهم المعرفية المتعالية فوق رؤوسهم. ووُجد مستكبرون يتلذَّذون بقتل الشرفاء الأبرياء وبتهديم المنازل والقرى والمساجد والمعابد.

الخلاصة أنّ الحرّيّة في المحيط الطبيعي معناها إزالة الحواجز الموجودة في البيئة المحيطة، والتي تعيق الحياة، وقيمتُها مرهونةٌ بصيرورتها مقدمةً ووسيلةً للارتقاء والسموّ، وإلّا فإنّ استمرار الحياة ـ أي الحرّيّة في المحيط الطبيعي ـ فضلاً عن أنها غير ذات قيمة بحدّ ذاتها، وليست مصدر خير وفائدة للآخرين، يكون في معظم الأحيان ما تتيحه من رفاهية للمترفين والمستكبرين مصدر البلاء العظيم والمصائب اللامتناهية لسائر الناس.

الميزة الثانية لهذا النوع من الحرّيّة، كونها في معظم الأحيان ـ على العكس من الحرّيّة في المحيط الداخلي ـ هديةً ومستعارة، وليست مكتسبة وأصيلة ونتيجة للارتقاء الذاتي. فمعظم الذين تحرروا في المحيط الطبيعي في خلال التاريخ وبخاصة التاريخ الحديث، لم يشاركوا في صنع حريتهم، ولم تكن الحرّيّة سمةً من سمات شخصياتهم، وإنما هي صفة لعلاقتهم بالطبيعة. هؤلاء في الواقع قد حُرِّروا ولم يتحرّروا، فالتحرّر بمعنى السموّ المعرفي له شروط هي عبارة عن:

1 ـ الوعي بنوع الأسر وكيفيته؛

2 ـ تصور الحرّيّة التي هي النقطة المضادّة لهذا النوع من الأسر؛

3 ـ الإرادة لتجسيد هذا التصور؛

4 ـ انعقاد الأمل والعزم لنيلها واكتسابها؛

5 ـ انتظار حدوثها بفاعلية ومجاهدة؛

6 ـ الجهود الفكرية والعملية في سبيلها.

لقد تحققت هذه الشروط لدى أشخاص بارزين عملوا على تطوير العلوم الطبيعية، أو كانت لديهم موهبة الاختراع والابتكار، أو الذين استفادوا من العلوم الطبيعية الجديدة للاختراعات المنظّمة والمعدّة بناء لتصاميمَ مسبقة، أو الذين كان لهم دور في تنظيم العمل، الذين تمكنوا في جميع الأحوال من استغلال المواد الخام والمصادر الطبيعية في صناعة الآلات والسلع وأنواع التقانة... من أجل حياة أفضل وأسهل، حرّروا أنفسهم والآخرين...

لكن هذه التقنية التي تستنفد جهود جمهور عظيم يوميًا، لم تكن مصدر ارتقاء للإنسان بقدر ما أصبحت مصدرًا لفقره الروحي وخوائه المعنوي...

هنا يتبادر إلى الذهن السؤال الأساسي المتعلق بحياة البشر. نحن نسمو الآن فوق مستوى الإنسانية، أم أننا ننخفض عنه؟ هل تنتهي أعمالنا بالتقرب إلى الله أم بالبعد عنه؟ هنا أيضًا تُطرح أسس الدّين والأخلاق والمعنوية، وتُطرح كذلك مسألة فائقة الأهمية عن معنى العمل وقيمته المعنوية...

لقد قال كبار المحققين: إن نشأة العلوم الطبيعية كانت بدافع السيطرة على الأشياء والمصادر الطبيعية... لم يرحم المتسلطون والرأسماليون المصادر الطبيعية ونظام البيئة المحيطة، وفضلاً عن ذلك استخدموا البشر فئرانَ تجارب، يجرّبون فيهم اختراعاتهم وأسلحتهم الفتاكة...

من أَسر المحيط الطبيعي إلى أنواع من الأسر أبعد غورًا:

وبدلاً من أن يساعد تقدّم العلم والاختراع في تحرير الإنسان

أوقع أهلَه والآخرين في قيود الأَسر. أَسرٌ هو أعمق غورًا من أسر البيئة المحيطة كما هو الحال في المجتمعات الأوروبية وفي أميركا الشمالية. إلى حد أنَّ المفكرين في تلك البلدان وبخاصة في منتصف القرن العشرين أحسوا بأن البشر على أعتاب مصيبة مرعبة، وهنالك خوف من فقدان كلّ ما حصل عليه البشر طيلة آلاف السنين، سواء من حيث طريقة العمل لإنتاج متطلبات العيش، أو من حيث شكل الحياة، أو طريقة التفكير. يقول كارل ياسبرس: «إنّ العصر الحاضر، هو مرحلة الفقر الروحي والفقر في الإنسانية وفي المحبة، وفي القدرة الخلّاقة. نحن نفهم حتمًا سعادة المكتشفين وغبطة المخترعين، لكننا في الوقت نفسه نرى إليهم عمالاً وشغيلةً في سلسلة مسار الخلق الذي لا اسم له، المترابط الحلقات، وأولئك الذين يساهمون في هذا المسار، لا تأثير لهم كبشر، ولا نرى فيهم عظمة الروح الشاملة. يبدو على الرغم من وجود الأفكار الخلّاقة المبدعة والسامية، والسعي الدؤوب، والتحمل والجرأة في عرض الطروحات التجريبية النظرية، أن الروح نفسها أسيرةُ مسار الاختراع، هذا المسار الذي سيطر حتى على العلوم نفسها، سيطرةً تشتد وتقسو يومًا بعد يوم وجيلاً إثر جيل: من هنا تنجم سذاجة علماء الطبيعة بالنسبة إلى الأمور الخارجة عن مجال تخصّصهم، وقصور التقنيّين في الأمور الخارجة عن وظائفهم، التي يرون أنها الواجبات القصوى والنهائية، وهي ليست كذلك في الواقع. وهذا مردّ الإحباط الكامن في عالمنا المعاصر الذي يبتعد يومًا فيومًا عن الإنسانية[1]... بالنسبة إلى عصرنا، له شبيه في مرحلة اختراع أخرى لا وثائق أو مستندات في متناولنا عنها، هي مرحلة اختراع أدوات العمل

(1) كارل ياسبرس، **بداية التاريخ ونهايته**، ص 121، 122.

واستخدام النار، المرحلة التي وَجد فيها الإنسان بطفرة عامة ظروفًا جديدة لاستخدام إمكاناته.. إن التقانة عمل استطاع الإنسان بواسطته، مستفيدًا من العلوم أن يسيطر على الطبيعة، أن لوجوده شكلاً يحرّره من مشقات الحياة ومصاعبها ومشاكلها، ويحوّل محيطه إلى مكان ملائم لسليقته. لكنْ ما هي الصورة التي أصبحت عليها الطبيعة على أثر الاختراعات، وكيف أثّرت الاختراعات في الإنسان، أو بعبارة أخرى كيف غيّرت طريقة عمل الإنسان وطريقة تنظيمه لعمله والشكل الذي أعطاه للمحيط في الإنسان نفسه؟

الجواب عن هذه التساؤلات ركيزة من ركائز التاريخ. . . لكنَّ سيطرة الإنسان الفائقة على الطبيعة نجمَ عنها خطر إذلال الطبيعة للإنسان، إذلالاً لم يكن له مثيل حتى في العصور الماضية، بحيث تتحكم بالإنسان بواسطة الطبيعة التي خلقها الإنسان التقني لذاته، وهنالك خطر من أن يقضيَ عليه ضغط هذه الطبيعة الثانية التي لمّا يسيطر عليها حتى الآن، وهو في حالة سعي دائم وراء حياة حرّة نسبيًا.

التقانة غيّرت حياة الإنسان اليومية في محيطه من الجذور، ووجّهت عملَ الإنسان والمجتمعَ الإنسانيَّ في اتجاه جديد: ضاع الفرد في وسط الجموع، اتخذت الحياة شكلَ الآلة، والكرةُ الأرضيةُ شكلَ المصنع، ففقد الإنسانُ استقرارَه، هو ساكن للكرة الأرضية ولا وطنَ له. اندثرت العادات والتقاليد، وتدنَّت الروح المعنوية إلى أنماط من السلوك والتعاليم المكتسبة، جعلت الإنسان غير راضٍ عن نفسه (= عذاب الوجدان والضمير)، أو أنه قد نسي نفسه كليًّا، كأنه بُرغيّ في آلة «الإنتاج أو المجتمع»، مستسلمًا دون أدنى تفكير لوجوده المعيشي، مضيِّعًا آفاق الماضي والمستقبل ومتعاميًا عنها، وأسيرًا لقيود الزمان الحاضر: «غير وفيٍّ لذاته، يمكن استبداله بأيّ

شخص آخر، مقيَّدَ الرجلين في دائرة اليقين الكاذب الضيّقة، اليقين غير المجرّب، وغير المتحرك، وغير المنطقي، والذي يتغير بسهولة»[1].

يقول برتراند راسل أيضًا: «التحرر من أسر الطبيعة جعل الإنسان قادرًا نظريًا على اختيار أهدافه إلى حدّ لم يكن متيسّرًا في أي عصر من العصور السابقة قلنا: «نظريًا»، لأن القوى المحرّكة والميول التي هي جزء من الطبيعة الإنسانية، هي التي تحدد نمط سلوكه بغضّ النظر عن حاجاته الطبيعية (= الحياتية) اليومية. فاليوم قسم محدودٌ من ميزانية الدولة لا يفي بحاجات تزايد السكان، يُنفق على رفاهية الشعب وراحته، في حين أن الجزءَ الأعظم من قدراتها يُخصّص لقتل الناس الآخرين، أو إعداد وسائل قتلهم، أو لتغطية رواتب الأشخاص الذين قَتَلوا الناس في السابق (العسكريون المتقاعدون أو المعوَّقون) وتأمين ضمانهم الاجتماعي والصحّي. ففي الولايات المتحدةِ يُنفَق خُمسُ الإنتاج الوطني تقريبًا على التجهيزات العسكرية. لذلك لا يمكن عدّ التحرر من أسر براثن الطبيعة نعمةً؛ هي نعمة إن أتاحت لنا القدرة أو الحرّيّة العملية لإنتاج ما يزيد من فاعلية الأمور المفيدة للنوع البشري. لكن طالما أنها لا تتيح المجال إلّا لعمل الغريزة القتالية، فلا فائدة منها، وإنما على العكس هي مضرّة كليًّا؛ يروي كثيرون قصصًا شيِّقة عن استخدام الطاقة الذرّيّة في الصناعة، وعن المكتسبات الناتجة عنها، لكنّ هذه المكتسبات إن ظلت الدنيا على ما هي عليه سياسيًّا، لن تُنتج سوى الحروب والدمار. يدلّ هذا المثال بشكل جيد كيف أن سيطرة الإنسان على الطبيعة قد خلقت له مسؤوليَّةً ومهامَّ جديدة.

---

(1) كارل ياسبرس، **بداية التاريخ ونهايته**، ص 130، 134.

ما لم يبادر الإنسان إلى التكيّف مع هذا الوضع بصورة لائقة، فإن النهضة العلميّة والحركة العلميّة الصناعية لن تثمر له سوى الحظ السيء، وربما أوصلت الجنس البشري إلى الطريق المسدود... العلم ينتج عمليًّا الوسائل لمواجهة العدو غير الإنساني (= عناصر الطبيعة وعواملها المضرّة)، لكن لا يمكنه أن ينتج الوسيلة لمواجهة العدو الإنساني أو لمحاربة الجزء السلبي من تكوين الإنسان نفسه، الذي يجرّه نحو الموت بدلاً من الحياة.

بعبارة أخرى، يمكن أن تُحلّ القضايا المتعلقة بصراع الإنسان مع الطبيعة ـ في الحدود الممكنة ـ بواسطة العلوم الطبيعية، لكن القضايا التي تواجه الإنسان لا تقتصر على ذلك، لذا يجب استخدام وسائل أخرى لحلّ سائر القضايا التي تواجه البشر[1].

إنَّ وضعَ الإنسان الغربي بحسب الشرح العلمي وعلم الإناسة هو على النحو التالي: لقد تحقّقت حرية الفرد في وقائع مختلفة ظاهريًّا من بينها حريته في المحيط الطبيعي، وحدث الكثير من التطور في داخله نسبةً إلى العوامل المحيطة، لكنَّ ذلك حصل بدرجات متفاوتة، فعلى سبيل المثال، حين تحرّر في المحيط الطبيعي، أصبح مخلوقًا حرًّا من قيود المحيط الطبيعي وليس أكثر من ذلك.

التميّز الذي ناله نسبةً إلى الحيوان يتضمن سمةً خادعة ومضلّلة، ويؤدي إلى الاعتقاد الباطل بأنه نال امتيازًا وقيمة وتفوقًا على الحيوان. لقد وهبته الحرّيّة في المحيط الطبيعي أو غير الطبيعي نوعًا من القوة، قيمتُها مرتبطةٌ باستخدام هذه القوة لاحقًا لمصلحته ولمصلحة أقرانه ولخدمة المحيط الذي تحرّر منه. كذلك فإنّ الحرّيّة

---

(1) **الآمال الجديدة**، ترجمة: محمد علي شايغان، ط 1334 هـ [1955م]، ص 38 ـ 40.

في كلّ من المحيطين الاجتماعي والدولي هي أيضًا قوةٌ، ومرتبطة كذلك بمدى النفع الذي تؤديه هذه القوى الثلاث لمحيط الإنسان الداخلي: إلى الكفر والاستكبار وسائر أنواع الانحطاط، أم إلى الإيمان والسموّ والتطوّر والتقرّب من الله؟ في الحرّيّة «نتحرر» من ضرورات المحيط الطبيعي غير الملائمة والمعيقة لحياتنا الطبيعية [الحيوانية]، دون أن تتمهد الطريق إلى الارتقاء والسموّ في محيطنا الداخلي. إن الحرّيّة في المحيط الطبيعي ما لم تقترن بالحرّيّة في المحيط الداخلي وتتوازن معها، وما لم تتعادل مع الحريتين الآخريين فلن تكون حريَّةً بمعنى التطور والارتقاء، أو ستتبدل إلى نقيض للارتقاء. . .

في صيف العام 2002م، حذّر إينياسيو رامونة الصحافي الفرنسي الشهير البشريةَ، من أنّ أقوى الدول الحديثة المتطورة: أي الإمبراطورية الأميركية تحاربها على ثلاث جبهات عالمية واسعة. يعتقد رامونة الذي يعمل في مجلة «لوموند ديبلوماتيك» الشهرية، أنَّ أوّلَ الجبهات اقتصاديَّةٌ، ولأنها مرتبطة بالبشرية جمعاء فإنها تشكّل مركز هذه الجبهات الثلاث. وتقع هذه الجبهة تحت إشراف ما يجب أن يُسمّى في الحقيقة «محور الشرّ»، المتشكّل من صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية. إن هذا المحور الشيطاني يفرض على العالم دكتاتورية السوق أو سلطة الخصخصة ومبدأ الرّبح كالمعتاد، ويمهّد السبيل لإلحاق الأضرار والخسائر الفادحة بجميع أنحاء الكرة الأرضيّة؛ يمكن الإشارة من بينها إلى الانهيار الكبير والشامل لشركة «أنرون»، والأزمة الاقتصادية في تركيا، وانهيار الاقتصاد في الأرجنتين، وتخريب المحيط البيئي العالمي.

يعتقد الصحافي الفرنسي، أنه لأمرٌ مخجلٌ حقيقةً، أن لا يتخذ

رؤساء الدول والحكومات، وبخاصة زعماء الاتحاد الأوروبي المبادراتِ العمليّة اللازمة لمساعدة دول الجنوب على الإنماء، مبادراتٍ وإجراءات من شأنها أن تخلّص ثلثي البشرية من الفقر، أو على الأقل إلغاء ديون الدول الفقيرة، وإيجاد نظام سخيٍّ، عادل ومنصف لإعادة جدولة ديون دول الجنوب، ووضع ضمانات لتكون الاستثمارات المستقبلية ذات شروط منصفة، لتُستخدم في سبيل التنمية المستدامة، وحثّ الدول الغنية على تخصيص 7% فقط من ثرواتها للتنمية، وجعل الاتفاقيات التجارية بين الشمال والجنوب متكافئة، ضمان سيطرة الدول الفقيرة على مصادر الغذاء، مراقبة حركة الرساميل غير المنطقية، رفع السريّة المصرفية، عدّ الجنَّة الضريبية مخالفة للقانون، وأخيرًا تنفيذ نظام ضرائبي دولي على الصفقات المالية.

الجبهة الثانية الخفيّة، الصامتة وغير المرئية، هي جبهة الإيديولوجيا، التي أوجدت برأي رامونة، صناعةً واقعيّةً «ملتزمة» بالتعاون الفاعل مع الجامعات والمؤسّسات البحثية المعتبرة (منظمة هريتيج، مؤسّسة أمريكان إينتربرايز، مؤسسة كيتو)، ووسائل الإعلام الكبرى (سي إن إن، فاينانشال تايمز، ووستريت جورنال، الإكونوميست، التي تقلدها مجموعة من الصحافيين الانهزاميين في فرنسا، وفي غيرها من دول العالم)، لتقنعَ جميع أنحاء الكرة الأرضية، أن النظام الليبرالي العالمي سيؤدي في النهاية إلى السعادة والرخاء العالميّين. وعلى هذا النحو بنى المنظّرون ـ اعتمادًا على سلطة المعلومات والمخابرات وتعاون أصحاب السلطة ـ كلّ ما يمكن أن يُسمّى «الاستبداد المستحب».

هذه اللعبة أو هذه المناورة المخادعة بدأها البنتاغون بعد حوادث 11 أيلول 2001م، بتأسيس «مكتب النفوذ الإستراتيجي»،

الذي أخذ على عاتقه مسؤولية نشر الأخبار والمعلومات الملفّقة وغير الصحيحة بهدف «التأثير في أفكار الشعوب والقادة السياسيّين في الدول الصّديقة والعدوة». وهكذا أنشأ نوعًا من وزارة إنتاج واستنساخ للمعلومات والأخبار كما كان عليه الوضع في سنوات «المكارثيه» الأكثر ظُلمةً، وفي مرحلة الحرب الباردة، مهمتها كجميع الديكتاتوريات الظالمة والجبانة، تحديد «الحقيقة الرسمية» التي يجب التصريح بها. لكنّ هذا الخيط المفترض أنه غير مرئي، ظهر «ضخمًا ومرئيًّا» إلى حدّ أن «المكتب» المذكور كان لا بدّ أن يُحلّ رسميًّا في أواخر شباط. الجبهة الثالثة التي لا وجودَ خارجيّ لها حتى الآن هي جبهة عسكرية أنشئت تحت الصدمة النفسية للحادي عشر من أيلول 2001م. يرى رامونة أن الهدف من إيجاد هذه الجبهة هو أيضًا دعم الليبرالية العالمية بجهاز أمني رسمي. الولايات المتحدة التي كانت تمرّ بلحظات وسوسة شيطانية وضعت هذه المهمة بعهدة حلف شمالي الأطلسي (الناتو)، لكنها عادت في النهاية وقررت أن تأخذها على عاتقها؛ ولتضعها موضع التنفيذ زوّدتها بوسائل وإمكانات لا حصر لها ولا حدّ لتأثيرها. والحرب الأخيرة في أفغانستان على نظام طالبان وشبكة «القاعدة» جعلت واشنطن تقتنع بأن طلب المساعدة العسكرية الواسعة من حلفائها الإستراتيجيين الرئيسيين أيْ إنجلترا وفرنسا وحتى الناتو، لمهمات بهذا الانفلاش غير ضروري.

لوحظ سلوك واشنطن هذا الذي هو نوع من الاحتقار لحلفائها في إعلانها الأخير عن نيّتها لمهاجمة العراق ـ الذي تمّ بدون مشورتهم ـ .

الانتقادات الأوروبية ـ التي همدت بسرعة ـ لم تؤثّر في الحكومة الأميركية بأي شكل من الأشكال. لأنّ مهمة الملّاكين في نظام ملوك الطوائف، أو بعبارة أخرى مهمة الأقمار في أيّ بلد

الخضوعُ والتعظيم لمشيئة الآلهة، وأميركا التي تعدّ نفسها هذه الآلهة، قرّرت منذ تلك اللحظة أن تنفّذ سيطرتها السياسيَّة المطلقة.

هذه «الأمبراطورية الجبّارة، الوحيدة» مصمّمة عمليًّا على جعل العالم ليبراليًّا. على جميع المعارضين، والمتمرّدين، وقوى المقاومة اليوم أن يعلموا أن محاربتها لهم تتمُّ على جبهات ثلاث:

اقتصادية وإيديولوجية وعسكرية؛ ذلك أنّ عصر احترام حقوق البشر، يبدو أنه أشرَف على نهايته، ووجود هذا «السجن الحارّ» المخجل في «غوانتانامو»... شاهدٌ بنفسه على هذا الأمر. يقول رامونة في النهاية إنّ «محور الشر» [صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية] كان يخفي وجهه الواقعي، لكننا اليوم بتنا نعرفه...».

بعد كتابة رامونة لمقالته بثمانية أشهر، أقدم الجيش الأميركي وخادمتاه إنجلترا وأستراليا ـ التي يحكمها نائب عن ملكة إنجلترا ـ على أشد الاعتداءات العسكرية والمجازر وحشيةً ضدّ السكان المدنيين والنساء والأطفال، بهدف احتلال العراق والسيطرة على مقدّراته ونفطه، وحدث عمليًّا ما كان قد توقعه هذا المحلّل السياسي ـ الاقتصادي البارز.

ب) الحرّيّة في المحيط الدولي: الاستقلال، «الحرّيّة الوطنية».

الاستقلال أو الحرّيّة الوطنية، توصيف لوضع شعب من الشعوب في الساحة الدولية، لا تتمكن فيه الدول الاستكبارية والمتحكّمة بالعالم ـ التي هي ليست سوى الدول المعتدية والمحتلّة في التاريخ ـ من إبادة ذلك الشعب، أو إلحاق الضرر الجدّي والخطير بحياته وارتقائه المعنوي. هذا الوضع الدولي يسمّى أيضًا «الأمن الوطني».

الأمن الوطني، الاستقلال، التحرر الوطني، ثلاثة تعابير عن واقع واحد لا أكثر: الحرّيّة في المحيط الدولي.

إن وضع المحيط هذا أو حالة الحرّيّة هذه، مشروطةٌ لتكون من نصيب الشعب أو الأمّة، أن تمتلك هذه الأمة «قوة وطنية» للردع وللدفاع عن نفسها مقابل التهديدات الحالية والمستقبلية. «القوة الوطنية» عبارة عن قدرة أيّ أمة على التأثير في سلوك سائر الدول وسياساتها الخارجية، وبخاصّة الدول الاستكباريّة والغنيّة، بحيث ترى أن ضرر الاعتداء والهجوم أكبر من نفعه، وفي حال الاعتداء، لا تستطيع أن تفرض على ضحيتها الأَسر والذلّة. أحد عناصر تكوين القوة الوطنية، تعريف العدو بها عمليًّا وإعلاميًّا، لذا فإنّ تهيئة القوة الوطنية والاستعداد لا تكفي وحدها لتفشيل الهجوم المحتمل للعدو، وإنما يجب في الوقت نفسه أن يطّلع العدو وسائر الدول، على العناصر المكوّنة للقوة الوطنية، وميزان هذه القوة، وتقويمها جيدًا، وعلى القرار والإرادة اللازمَيْن لاستخدامها، كي لا تخطىء في الحساب واتخاذ القرارات. وهذا هو الهدف من إجراء المناورات العسكرية والتجارِب العلنية للأسلحة الجديدة.

إنّ العناصر الأساسيّة المكوّنة لأي قوة وطنية هي عبارة عن: العوامل الجغرافية، والنموّ الاقتصادي والصناعي، ومستوى التقانة، وكفاءة المؤسّسات السياسيّة والدبلوماسيّة والإعلاميّة، ودرجة الوحدة الوطنية، والأهم من كلّ ذلك مستوى الثقافة المعنويّة للأمّة. العامل الأخير من نوع الرشد المعنوي ـ أو نمط الحياة الإنسانية ونمط الحياة الطّيّبة ـ بالنسبة إلى عدد السكان. بعبارة أخرى، يقاس بعدد الأفراد الصالحين المؤمنين (بالمعنى الوحياني ـ التوحيدي)؛ فقط الأشخاص الذين يرفضون القيود، «الأحرار». وكما يقول الإمام الخميني (ره): «أمة تملك الشهادة، لا تقع في الأسر».

في القرآن الكريم حكمان إلٰهيّان يأمران بإعداد القوة واستخدامها لإرهاب العدوّ ودحره، وبعدم التخاذل والتفرّق فيفقدون عزّتهم

ووجودهم. هذان الأمران موجّهان إلى الأمّة الإسلاميّة وإلى جميع المسلمين في سائر أنحاء الدنيا. وإن كلّ ما أنجز في الجمهورية الإسلامية الإيرانية ونُفّذ بخبرة وبدقّة، بما في ذلك تنفيذ القوانين التي أقرَّها مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور، ومجمع تشخيص مصلحة النظام، والأحكام التي صادق عليها وليُّ أمر المسلمين، لم يكن سوى وضع هذين الحكمين ـ وغيرهما من الأحكام المشابهة ـ موضع التنفيذ. لكنَّ مستوى **الاجتهاد السياسي الحالي** غير المتناسب مع النظام الإسلامي لم يسمح حتى الآن بتنفيذ ما وُضع تحت عنوان «تشخيص مصلحة النظام» في ضوء هذين الحكمين ونظائرهما. إن الاجتهاد السياسي اللائق بالنظام الإسلامي، لن يحصلَ إلّا باستيعاب العلوم الإستراتيجية بمستوى أرفع مما يُدرّس في الجامعات الغربية، والعلوم الأخرى.

في برنامج إعداد القوّة الوطنية واستخدامها يجب مراعاة الملاحظات التالية:

1 ـ المحافظة على القوّة اللازمة، والمستوى المرتفع استعدادًا للحرب وللرّدع. فالقدرة على الحرب والقدرة على الردع على حدٍّ سواء هما أمران متلازمان [لازم وملزوم]، على الرغم من أنّ الرّدع من الناحية الزمانية متقدم على الحرب. إن جزءًا مهمًّا من هذه القوة كامنٌ في امتلاك الإرادة الحاسمة للإقدام على الحرب الدفاعيّة في حال الضرورة.

2 ـ الاستعداد للحرب الطويلة الأمد أو المستمرة ـ حتى في حال انهيار القوات الموجودة في ساحة المعركة ـ على شكل مقاومة وطنيّة عامّة وشاملة.

3 ـ التخطيط للحالات المحتملة المختلفة، والتمتّع بالحد الأقصى من المرونة والتطور في الوقت المناسب.

4 ـ نظام القيادة المركزية، في الوقت نفسه الذي يكون فيه الدفاع عامًّا وشعبيًّا، بحيث يتضمن مراقبة التنفيذ الدقيق للأوامر، وتوجيه سير العمليات، ومن مستلزمات ذلك نظام اتصالات سريع وموثوق ولا يمكن اختراقه.

5 ـ القوة الكافية لإجبار العدّو على قبول مطالبنا في الظروف السابقة على الحرب وبعدها.

6 ـ إيجاد الملاجىء والتحصينات التي تحمي السكان المدنيين من أضرار الحرب.

لندرك بشكل أوضح مفهوم «الحرّيّة في المحيط الدولي»، كفهم أيّ حرية [عزّة] أخرى، لا بد لنا من معرفة وضع الأَسْرِ في المحيط [الذلّ] المضاد لها بشكل أكبر. فالأمّة ـ الدولة الأسيرة الذليلة في الساحة الدولية، هي أمة ودولة تحتَ الانتداب، مستعمَرَة، أو شبه مستعمرة، أو تابعة للإرادة السياسية لدولة أخرى من أجل الدفاع عن نفسها، ولإقامة علاقات خارجية وتعاون دولي. فالدول الصغيرة الأعضاء في منظمة دفاع مشترك، نسبةُ «حريتها الوطنية» محدودة، وتابعةٌ للمصالح الوطنية وحتى المطامع الوطنية للدول الكبرى.

ج) الحرّيّة في المحيط الداخلي:

المحيط الداخلي هو النظام المعرفي المتعالي الموروث والفطري، المختص بالإنسان فردًا، وترتبط به المجتمعات والأمّة والبشرية من خلال الأفراد الذين يعدّون أعضاء فيها.

في بنيتنا الوجودية، هنالك إلى جانب الاستعدادات الإيجابية، والقدرات التي تمكّننا من صون الذات والارتقاء المعنوي ـ أو سبيل التقرب إلى الله ـ جزءٌ مضِرٌّ وعرضة للأذى، ويعرّضنا للأخطار

الحياتية وأيضًا التربوية والأخلاقية. وهو «الوجه السلبي» لبنيتنا الوجودية الموازي «للوجه السلبي» للطبيعة الخارجية.

هذا العامل المضرّ والمفسد لوجودنا هو «الهوى» الذي يعدّ المحرك الفطري ـ أو الموروث، وكلما أراد شخص ترجيح الحياة الدنيوية الدنيّة على الحياة الإنسانية والحياة الطيبة، أسلم تفكيره وأعماله وسلوكه الاجتماعي لهذا الميل أو المحرّك، فيتشكل في وجوده أحد المعطيات الدنيّة ـ أو البعد عن الله. «الهوى» شُحٌّ ورغبةٌ وحرص وطمعٌ لا يَشبع ولا يرتوي بالثروة والسلع والسلطة والشهرة والعلم والمهارة واللذة. لا دورَ مفيدٌ له بالنسبة إلى حياتنا الحيوانية، ولا يخدم بقاءنا واستمرارنا، بل هو في كثير من الأوقات يعرّض وجودنا للخطر.

لدينا كذلك أجزاء ثلاثة معرّضة للضرر: الأول ذهنُنا، والثاني ميولنا العضوية التي تؤمّن صَوْن ذواتنا بمساعدة مشاعرنا وانفعالاتنا، والثالث الاستعداد لتكوين العلائق الدنية ـ «الأهواء» في دواخلنا.

1 ـ أَسرُ «الهوى» والتحرُّر منه:

في الدين تعاليم تتعلق بالعوامل المفسدة والمخلّة، والأجزاء المعرّضة للعطب في كيان الإنسان، وفيه تعاليم وأحكام ووصايا لا تعدّ ولا تحصى يمكّن الالتزامُ بها الإنسانَ من نيل الحرّيّات الأربع في محيطه الداخلي، وهي من حيث صدقُها وحقّانيتها فريدة لا منافس لها، تشهد التجارب التاريخية للبشر، وما يشهده الإنسان في كلّ عصر ومصر على صحتها وحقانيتها.

لقد عرّف الله العليم الحكيم الإنسانَ بواسطة الوحي بتركيبته المعرفية الإنسانية المتعالية، وأماط اللثام عن وجود المحرّك الفطري

الهوى أو «الشحّ»: ... ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾...[1]، ودلّه على طريق الحرّيّة الإنسانية في المحيط الداخلي، بأن يصون نفسه من آثار الشحّ الآسرة الدنيّة: ... ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2]. ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾... ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾[3].

من اختار وفضّل الحياة الدنيَّةَ الدنيويَّةَ على الحياة الإنسانية وعلى الحياة الطيبة، وسلّم عنانه للمحرك الفطري «الشحّ» أو «هوى النفس»، يكون في الواقع قد أوقع نفسه في أسرِه، ومصيرُه بعد الموت معلوم... ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4].

في القرآن والحديث ذُكِرَ هذا المحرّك الموروث باسم «الهلع»[5] و«الشُّحّ»[6] و«الهوى»[7]، ويصوّر القرآن واقع هذا المحيط الطبيعي

---

(1) سورة النساء: الآية 128.

(2) سورة الحشر: الآية 9؛ سورة التغابن: الآية 16.

(3) سورة المعارج: الآيات 19، 31.

(4) سورة النازعات: الآية 40، 41.

(5) سورة المعارج: الآية 19؛ الصحيفة السجّادية، ص 79، 295.

(6) سورة النساء: الآية 128؛ سورة الحشر: الآية 9؛ سورة التغابن: الآية 16.

(7) سورة الأعراف: الآية 176؛ سورة الكهف: الآية 28؛ سورة طه: الآية 16؛ سورة الفرقان: الآية 43؛ سورة القصص: الآية 50؛ سورة الجاثية: الآية 23؛ غرر الحكم، 62، 64، 65؛ نهج البلاغة، ج1، ص 72.

والاجتماعي الخاص، الذي يعيش فيه آدم وحواء بدون منازع أو منافس، وقد لُبيّت حاجاتهما العضوية: الزواج والطعام واللباس والمسكن والهواء النقي المعتدل، إلّا أن عاملاً خارجيًّا مفسدًا غيرَ مرئيّ هو ذلك الهوى، أغواهما للاقتراب من شيء مُنع عنهما، فضلّا السبيل[1]، هذا المعنى نفسه ورد في آيات أخرى تؤكد أن مسيرة التقرب إلى الله تفرض البقاء بأمان من آثار الهوى السيئة[2]. ويقول النبي الأكرم (ص): «شرُّ ما أعطيَ ابنُ آدم شُحّ هالع وجُبن خالع[3]»، ويقول أمير المؤمنين (ع): «وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اتبّاع الهوى وطول الأمل»[4].

والإمام السجّاد يسأل الله عزّ وجلّ الرحمة والشفقة من هذه النفس التي لا قدرة لها على الصبر، ولا على تحمّل حرارة الشمس: «فأسألك اللّهمّ... ألا رحمتَ هذه النفسَ الجزوعة وهذه الرِّمّة الهلوعة، التي لا تستطيع حرّ شمسك[5]»، ويقول: «اللّهمَّ أعذّني من سوء الرغبة وهَلَع أهل الحرص[6]»، ويقول الصادق (ع): «أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيرًا[7]»، ولكنَّ «الهوى» وحده لا يكفي لحضّ الإنسان على الحياة الدنيّة الدنيوية، يعضده إبليس بأعماله ومنها «التزيين» ومن خلاله تتشكّل الفلسفة الدنيوية: «قال [إبليس]: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ

(1) سورة طه: الآيات 117، 121.
(2) سورة الحشر: الآية 9؛ سورة التغابن: الآيات 15، 18.
(3) رواه أبو داود الطيالسي وابن حيّان وأحمد بن حنبل وابن إسحق والبزّاز.
(4) **نهج البلاغة**، ج1، ص 72.
(5) **الصحيفة السجاديّة**، ص 195.
(6) المصدر نفسه، ص 197.
(7) **الكافي**، ج2، ص 316.

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾»[1]. ولقد صدق ظنّ إبليس بالبشر: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾...[2].

وهكذا يصبح كلّ أسيرٍ لهواه، أسيرًا للشيطان، وأسر الشيطان هو أسرُ الباطل أو هو أسرٌ ثقافيّ...

2 ـ أسرُ الغرائز والتحرّر منه:

الأسر لغريزة الطعام والشراب، قال الله عزّ وجلّ ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾...[3]، كي لا يصبحوا أسرى بطونهم، وما يستتبع ذلك من إسراف وتبذير، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[4].

أسرى الغريزة الجنسية، وما يستتبع ذلك من فجور واعتداء على نواميس الآخرين، وقد أمر الله عزّ وجلّ الرجال والنساء بأن يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم[5]... ليتحرروا من أسر الغريزة الجنسية، للارتقاء معنويًّا، وللتقرّب من الله.

3 ـ أَسْرُ العلائق الدنيّة (الأهواء):

لدى الإنسان قدراتٌ بنيويّة متنوعة ومتضادّة، وهو قادر أن يختار واحدة منها. وهو باختياره الحياةَ الطيبة يسلّم إرادته إلى الميل إلى الحق الذي هو مَلَكةٌ فطريّة لديه، لينال الارتقاءَ المعنوي والتقرب

---

(1) سورة الإسراء: الآية 62.
(2) سورة سبأ: الآيتان 20، 21.
(3) سورة الأعراف: الآية 31.
(4) سورة الإسراء: الآيتان 26، 27.
(5) سورة النور: الآيتان 30، 31.

إلى الله، أما إذا استسلم على العكس من ذلك إلى الهوى الذي هو محرّك فطري آخر، وجعل من فكره أسيرَ مشاعره وانفعالاته وسلوكه العملي، فإنه ينحدر إلى الحياة الدنيّة الدنيويّة، أو يترك التعقل مكتفيًا بإرضاء الغرائز العضوية فيتحول إلى حيوان محض. كذلك هو قادر أن ينمّيّ في ذاته الميلَ إلى الاستبداد والتسلط والترف، فيصبح مفسدًا و«يهلك الحرث والنسل».

وفي هذه الحال يصبح عبدَ علائقه الدنيّة، وأسيرًا لها: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[1]، وهؤلاء هم الذين لا يستجيبون لدعوات الأنبياء، لأنهم يطيعون علائقهم الدنيّة: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾[2]، هؤلاء لا يستخدمون عقولهم وإنما تحرّكهم أهواؤهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[3]، لا يملكون الاستعداد للاستجابة إلى دعوة النبي ﴿...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾؛ وأكثر من ذلك يعملون بدافع من أهوائهم الدنية الاستكبارية على محاربة الدين والوحي والله والنبي والمستضعفين والمؤمنين الصالحين المجاهدين، ويلجأون إلى تعليم الفلسفات الدنيوية الدنيّة ونشرها وبثّها...

4 ـ أَسْرُ الباطل (الفلسفات الدنيوية الدنية)، الظنّ، الفكر المنحرف:

أَسرُ الباطل، والتحرر منه أمران يحدثان في ذهننا ـ الذي هو

---

(1) سورة الفرقان: الآية 43.

(2) سورة القصص: الآية 50.

(3) سورة محمد: الآية 16.

أحد مراتب وجودنا ـ فإذا أصبحنا أَسرى الباطل، نعيش في «الظلمات»، ولا ننعم بنور الحقيقة، أما إذا تعلّمنا الحكمةَ أو فلسفة الحياة الطيبة أي طريق التديّن الوحياني، فإننا نخرج من «ظلمات» الجهل والظنّ الباطل ونعيش في النور: . . . ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وكما أنّ كلّ عمل يستلزم تعلمًا، فإن الحياة ـ التي تتضمن حجمًا كبيرًا من العمل والسلوك ـ غير ممكنة بدون تعلّم قبليّ، وهكذا نكون ـ بحسب تكويننا ـ قادرين على سلوك سبل الحياة الدنيّة أو سبل الحياة السامية، ويكون بإمكاننا من خلال بعضها أن نتخلص من حالتَيِ الأسر والذلّ ونرتقي إلى حالتَيِ الحرّيّة والعزّة، أو على العكس من ذلك ننحدر من خلال بعضها الآخر من أوج العزّة والحرّيّة إلى هاوية الذلّ والأسر أو الانحطاط. وإذا أعملنا تفكيرنا نستطيع توجيه نوع الحياة التي اخترناها لأنفسنا. . .

وهنالك إمكانية أن نتعرّفَ خصائصَ تلك الحياة وتفسيراتها المتعلقة بالميراث الثقافي أو السنّة الاجتماعية ـ السنة التوحيدية، وسنة الشرك والإلحاد ـ ونطبّقَها ونمارسَها عمليًا. فنحن على العكس من سائر الأحياء سلوكنا وأسلوبُ حياتنا رهنٌ بالاكتساب والتعلم والذاكرة. . . كذلك إلى جانب الاكتساب التلقائي نملك قدرة الاكتساب الإرادي؛ والمهم في عملية الاكتساب نوعية الحقيقة التي نتعلمها، أهي مفيدة لنا أم مضرّة؟ وهل تؤدي بنا إلى الانحطاط، أم ترفعنا إلى الكمال والارتقاء والفضيلة؟ وهل هي مفيدة لعيشنا أم

---

(1) سورة البقرة: الآية 257.

لارتقائنا المعنوي؟ وهل ما نتعلمه ونكتسبه حقيقة أم باطل هو؟ وما هي كيفية ارتباطنا بها ذهنيًّا: أيقين هي أم ظنّ؟ وهل نفكر بالأمور والظواهر والحوادث والوقائع بدافع إحقاق الحق وكشف الطريق ورسم الحياة المتعالية الطاهرة، أم بدافع العلائق الدنيّة والتفكير المنحرف؟...

إنّ ذهننا الذي هو أحد عناصر وجودنا هو الذي يقوم بعملية الاكتساب والتعلم، وفضلاً عن ذلك يحتفظ بما يكتسبه ـ الحافظة ـ ليتذكّرَه في ما بعد. وتنتظم المعارف المكتسبة حول عدة محاور أو معارف أساسيّة ليُحتفظ بها كمنظومات معرفية، وعلى هذا الأساس تعمل؛ فحين يتم تذكّر أي عنصر من أيِّ منظومةٍ، يستدعي الذهنُ تلقائيًّا المنظومةَ بأكملها واضحةً وجاهزةً للاستخدام، مثلاً ذكر الله وقول: «بسم الله» يستحضر تلقائيًا منظومةً عظيمةً من المعارف والحقائق إلى ضميرنا الواعي، لتهيمنَ على أفكارنا وعواطفنا وانفعالاتنا وحركاتنا في خلال العمل الذي بدأنا به، وتضفي عليه صبغة إلٰهية.

ليس التذكر هو وحده المبني والمعتمد على التعلّم، وإنما المعارف اللاحقة المكتسبة إراديًّا، تستلزم التذكّر. كذلك فإنّ عملية التعلّم في الكثير من الحالات تتطلب نسيان أو محو الأجوبة الخاطئة والأباطيل التي بتنا نعِي بطلانها.

الاكتساب من المحيط العائلي والاكتساب من المحيط الاجتماعي يتشكّلان قبل الاكتساب المدرسي، ودورهما أهمّ في تكوين سلوك الفرد وشخصيته. ومع عولمة وسائل الاتصال تسعى القوى العظمى إلى إفساد جماهير البلدان التي تهدف إلى السيطرة عليها من خلال تلقين فلسفتَي الحياة الحيوانية المحضة وما دون الحيوانية، بالوسائل المتعددة، وتستقطب في الوقت عينه المستكبِرين

والمتموّلين في تلك البلدان. ويتم كلّ ذلك من خلال النظام التعليمي والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، وقد أُطلق على كلّ ذلك اسم التثقيف، وهذا ما فعلته الإمبراطورية الأميركية بعد استخدام السلاح النووي في اليابان، حيث أَجبرت هذا الشعبَ على اعتماد نظام تعليمي جديد يؤمّن هدفها الحقير هذا. إن آثار تعليم المدارس أبعد من حدود أهداف البرامج التربوية والتعليمية المعروفة والمعلَنة...

إنّ ما يقدمه المستكبرون والمتمولون والمستبدون إلى الجماهير الفقيرة المستضعفة والأسيرة من ثقافة هو عبارة عن تلقين فلسفة الحياة الحيوانيّة المحضة، وفلسفة الحياة الأدنى من الحيوانية مقترنًا بتسويغ المكانة السياسية والاجتماعية «للنخب»، أو أرستقراطية الحداثة. من خلال هذه السبل التي يصبح فيها البعض باتّباعهم للباطل واكتسابه والإيمان به أسرى الباطل، يُثقل كواهلهم نيرُ الأحكام والقوانين التي يضعها المستكبرون والمتموّلون والمفسدون حول أعناقهم.

أما الفريقان الاجتماعيان المتسلطان اللذان هما أسيران للموروث وللعلائق الاستكبارية الدنيّة، فيتعلمون بإرادتهم وبكامل وعيهم الفلسفات الخاصّة بحياتهم الدنيّة المتوافرة في الميراث الثقافي أي سنّة الإلحاد والشرك الاجتماعية. يتعلمونها في المنزل وفي المجتمع وفي المدارس، ويتقبلونها لأنها متلائمة ورغباتِهم الدنيّةَ ومسوّغةٌ لها، فيصبحون أسرى لها...

وهكذا نحن نشهد أنموذجين مختلفين من الانحطاط، ونوعين من أسر الباطل، أحدهما متعلق بالمستضعَفين، والآخر بالمستبدّين الذين يشكّلون فريقين اجتماعيّين هما؛ المستكبرون والمتمولون الذين يُحكمون سُلطتَهم على المستضعفين من خلال نشر فلسفة الحياة الحيوانية وما دون الحيوانية في أوساطهم، فيضلّونهم ويفسدون

عقيدتهم، فيخضعون لهم وللباطل بمحض إرادتهم: ﴿...فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[1]، و﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ...﴾[2].

ما هو الحق الذي وصل من الخالق إلى المؤمنين المتحرّرين من أسر العوامل الداخلية المفسدة والباطلة؟ علم الإناسة الكوني التوحيدي؛ فلسفة الحياة الطيبة؛ معرفة سبيل التقرب إلى الله، ونتائج الانحطاط والبعد عن الله؛ الشريعة أو الأحكام والأوامر والنواهي التي هي الأمر بالمعروف (الحسن العقلي)، والنهي عن المنكر (القُبح العقلي)؛ ينالون من جرَّاء تطبيقها على أنفسهم التعالي والارتقاء المعنوي، فيصلون إلى العزّة والتقرّب من الحق، وبتطبيقها في المجتمع من خلال التنظيم الاجتماعي الديني والإرادي، يجعلون المحيط الاجتماعي والمحيط الدولي ملائِمَيْن للهداية ولنمو الفضائل، وتحرير المستضعفين. الدين الموحى به، أو فلسفة الحياة الطيبة، هو درس الحرّيّة ـ والعزة، ودرس الكرامة، ودرس سبل التقربّ إلى الله: «إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»...

من هو معلم هذا الدرس ـ درس الحق، والحكمة أو فلسفة الحياة الطّيّبة؟ هو الله الخالق، الحقّ، والذي هو على كلّ شيء قدير.

والحق! كيف يعلّم ومن يعلّمه؟ يعلم من طريق الوحي إلى نبيّه، الذي يبلّغ الوحيَ للناس: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[3]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣

(1) سورة يونس: الآية 32.

(2) سورة البقرة: الآية 257.

(3) سورة العلق: الآيات 1 ـ 5.

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ . . . . ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾[1].

إنّ اتّباع «الحق» واتّباع الأنبياء والتعاليم الإلهية، يكون من خلال التفكّر وإعمال العقل: بالمشاهدة والتجربة والاستدلال والاستنتاج، التفكّر بأمر الوحي، وبأنفسهم وقدراتهم واستعداداتهم الداخلية الموروثة والمكتسبة، والتفكّر بأمر الكون وبخلق السموات والأرض وما بينهما، والتفكر بأحداث التاريخ الواقعي والحقيقي[2].

التفكير بدافع إحقاق الحقّ والارتقاء المعنوي؛ التفكير بالمواضيع التي تحدّد مصير الإنسان ومصير مجتمعه وأمنه، وحتى مصير البشرية. . . للتخلص من ظلمات الجهل والظنّ والشك وصولاً إلى العلم، وإلى معرفة الحقائق الأساسيّة المؤثّرة في الحياة والطريق إليها وقوانينها. كما أمرنا الله عزّ وجلّ أن نتبعَ الأنبياء، لأنَّ الوحيَ أعطاهم علمًا لم نصل نحن إليه، وليس لدى العلماء إن لم يكتسبوه من السنن الثقافية التوحيدية وتعاليم الأنبياء، القدرةُ على اكتشافه مباشرةً بواسطة التفكير. وهذا ما فهّمهُ إبراهيم الخليل لأبيه ـ أو لرئيس القبيلة[3] ـ . . .

بواسطة التفكير واكتساب المعارف الوحيانيّة المستمرّة في السنة التوحيدية، نتوّصل إلى المعرفة التي هي «النور»، الذي يضيء الطريق إلى الحياة السامية والارتقاء المعنوي والتقرب من الحقّ تعالى. مولى المتّقين يقول: «أول الدين معرفته[4]»؛ أيْ معرفة الله، والطريق

---

(1) سورة الرحمن: الآيات 1، 9.

(2) سورة يس: الآية 41؛ سورة الروم: الآية 8، 9؛ سورة الأعراف: الآية 176؛ سورة يونس: الآية 24؛ سورة النحل: الآية 44.

(3) سورة الجاثية: الآية 18.

(4) سورة الأنعام: الآيات 74 ـ 83.

المعاكس هو الظن: ﴿...مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئًا»[1]. إن أسرَ الظن هو في الواقع تتمة لأسر الباطل، وما أسر الباطل إلّا الغرق في الظلمات، والعمى الفعلي، وإضاعة طريق الرشد المعنوي والحرّيّة، وجهل التاريخ والمستقبل. ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

الحرّيّة الثقافية:

الحرّيّة الثقافية هي وضع لذهن الإنسان أو باطنه، عارٍ من الظن بالنسبة إلى الظواهر والقضايا الحياتية، متخلصٌ من الفكر المنحرف ـ أو التفكير بدافع الأغراض المنحطّة: الاستكبارية والدنيوية والحيوانية والأدنى من الحيوانية ـ ومن تعاليم الكهّان والفلسفات والسنن الإلحادية، أو بشكل عامّ عارٍ من الباطل. بتعبير أدق: الحرّيّة الثقافية هي تخلص الذهن من أساليب الاكتفاء بالظن والتفكير المنحرف والتقليد الأعمى، وإهمال العقل، والتسليم لدعاوى الكهان وأدعياء العلوم الاجتماعية والإنسانية المضلّلين، واعتماد أساليب التفكّر في الآفاق وفي الأنفس، وإعمال العقل، وتقويم السنن السائدة المتضادة في المجتمع وفي المحيط الدولي، والتأمل في التاريخ، والحذر من الحوادث المحتملة والحتمية للمستقبل والمترافق

(1) سورة النجم: الآية 28.

(2) سورة يس: الآيات 1 ـ 9.

في هذا الشأن مع التدبير، وبكلمةٍ واحدة: الانتقال من الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق...

إنّ التحرر من الباطل هو المرحلة الأولى فقط من مراحل الإيمان أو مسيرة التقرّب من الله، التي تكون عاقبتها إمّا الإيمان وإما الكفر. والمُعين في هذا السبيل هو الإرادة الإنسانية، التي ترتبط بالتبعية للحقّ وللنور، وللتعاليم الإلٰهية، أو باتباع الأغراض الدنية التي أوجدها في داخله، أو الهوى الموروث والمكتسب.. وفي هذا السياق يجد الإنسان نفسه في مواجهة عدة عوامل بعضها من محيطه الداخلي وبعضها من المحيط الطبيعي أو المحيط الاجتماعي، أو الدولي، أو من تفاعل هذه العوامل في ما بينها.. ويقع الإنسان تدريجيًّا في أسر هذه العوامل، أسيرَ فلسفة الشرك والإلحاد وتعاليم الكهّان: آثار ومؤلفات أدعياء العلوم الاجتماعية والإنسانية، ووسائل الإعلام التابعة للمستكبرين والمتموّلين؛ أو أنه بإرادته يحرّر نفسه من أسر الهوى وتاليًا من أسر المحيط الاجتماعي والمحيط الدولي.

الفصل السادس

الحرّيّة في المحيط الاجتماعي

المحيط والتربية:

من العوامل المؤثرة في تكوين شخصيّة الفرد بنيتُه المعرفيّة المتعالية، وعنصر الاستقلالية في هذه البنية.

إنّ الإرادة على الرغم من كونها تعدّ جزءًا من البنية المعرفية المتعالية للفرد، هي في الواقع «ذاته» الأصلية، ذلك الشيء الذي يتيح تفتّح بعض الاستعدادات الفطرية أو البنيوية لديه، أو يعطّل بعضَها، أو يختار من الأعمال الممكنة ما يشبع غرائزه، أو يختار محركًا كالهوى أو يعطله، أو ينمي الحقّ أو يعطّله.. إنّ الإرادة تتدخل وتتصرف في الاستعدادات والقدرات الفطرية وفي البنية الحياتية الطبيعية وفي الإمكانات المحيطة، وهذا التدخل وكيفيته هو الذي تنتج عنه أنواع الحياة المختلفة، وتنوعٌ في شخصيات الأفراد وأنماط سلوكهم. العامل الآخر الذي يدخل في تكوين شخصية الإنسان، وفي تحديد مصيره، هو المحيط الاجتماعي...

إن الإنسان يحيا ويتطور جسديًا وعقليًا وتتكون شخصيتُه في أحضان المحيطيْن الطبيعي والاجتماعي، لكنَّ نسبة تأثير كلٍّ من هذين المحيطَين مسألةٌ مطروحة منذ القدم، وقد أثارت الكثير من البحث والجدال..

إنّ سلوكَ الإنسان بمنظار الدين والمعرفة المتعالية معلولُ علائقَ وأغراضٍ له هو نفسه دورٌ وقرار في تكوينها، وفي الوقت نفسه تابعٌ للاستعدادات الموروثة وظروف المحيط التي تعيّن حدود حرية اختياره. فكلما كان المحيط الطبيعي أو الاجتماعي أو كلاهما على نحوٍ يمكن أن يسلِبَه حرّيةَ الخيار وحرّية اختيارِ أسلوبِ العمل الذي يرى فيه صلاحَه، فإنَّ طريق التطور والتعالي تنسدّ في وجهه، ذلك أن الحرّيّة الإنسانية كامنةٌ في إمكانيةِ اختياره طريقًا من بين الطرق الموجودة، هذه الحرّيّة ليست بمعنى العمل من خلال الوعي بالضرورات والموجبات، وإنما بمعنى التصميم والإقدام المبنيّيْن على الوعي بعواقب الخيارات المختلفة. إقدامنا وسلوكنا كأي حدث معلول آخر هو علّة، لكن في مجموعة الحوادث قبل إقدامنا وسلوكنا، كثيرةٌ هي الدوافع الناجمة عن تفاعل بُنيتِنا مع المحيط، والتي يمكن أن تكون علّةً للحوادث اللاحقة، وهي حتى وإن لم تصبح علّة فإنها تتضمن ما يقتضي ذلك الحدث؛ وأما معرفة أيٍّ من تلك العلل يمكن أن تكون العلة المؤثرة أو الأكثر تأثيرًا، فذلك مرتبطٌ بوعينا وتصميمنا وإرادتنا. بتعبير آخرَ إنّ إقدامنا وسلوكنا حدثٌ كسائر الحوادث ليس بلا علّة، لكنْ ليست كلّ الأمور مقدّرة.

القضية المطروحة في الدين والمعرفة المتعالية هي علاقات الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، وحدود تأثير كلٍّ منهما في الآخر.

هنالك عدد من الأفراد يتكيّفون وينسجمون إلى حدٍّ ما مع المحيط الذي يعيشون فيه، لكن العدَدَ الأكبر منهم لا ينسجمون معه، وهم مستعدّون لتغييره. وبما أنّ المجتمعاتِ والبيئات

الاجتماعية مختلفة ومتناقضة، فإن تكيّف الفرد مع المجتمع والمحيط أو معارضته لهما، يحمل معانيَ مختلفة.

هذه المسألة بالشكل الذي طُرحت فيه في الدين والمعرفة المتعالية، تتقاطع دائمًا وتختلط أحيانًا في تاريخ الفكر النفسي - الاجتماعي بالمسألة المشابهة التي هي موضع بحث وجدال في علم النفس الاجتماعي وفي علم الاجتماع، وبمسألة الوراثة والتربية التي تدرّس في علم الحياة وبعض الفروع العلميّة الأخرى، وبمسألة الوراثة والمحيط التي تحوّلت في أوساط الإنجليز إلى علاقة الطبيعة بالتربية[1]، وقد سعَوا في دراستها إلى تحديد حصَّة الجانب المعيشي والجانب الاجتماعي في الرصيد النفسي للفرد. من هنا أرى من الضروري من خلال توضيح هذه المباحث أن أهيِّئ المجال لفصل بحثي عنها. هذا التفكيك مكمّل للتفكيك الذي قدّمتُه لتمييز تركيبة النظام المعرفي المتعالي للفرد، عن سائر التراكيب التي صاغتها وتطرقت إليها فروع العلوم المختلفة[2].

في علم الحياة يتركز البحث حول المسألة القائلة: إنّ للفرد منشأين: أحدهما: تركيب البويضة التي جاء منها، والآخر كيفيّة نموّه وتربيته أيْ تاريخ تطوره. الخصائص الوراثيّة موجودة في البويضة كمجال واستعداد بالقوة، وهذه الاستعدادات الموجودة بالقوة تنشط بحسب المحيط أو الظروف التي تواجهها البويضة، فالجنين، فالطفل، فالبالغ، أو أنها تبقى عاطلة وفي حالة من الخمود. إنّ لكلِّ فردٍ تاريخَ تربية خاصّاً به كخصوصية تركيبته الوراثية وتنظيم جيناته الوراثية؛ لكننا لا نعلم حصة كلّ عامل من هذين العاملَيْن في

---

(1) matuse and mustuse.

(2) انظر: **الإرادة المعطوفة على الحياة الطيبة**، ص 73، 197.

تركيبتنا، ولا نعلم أيهما أكثر أهمية، أثر الوراثة أم أثر المحيط والتربية[1]. إنّ نتيجة المشاهدات والتجارب تشير إلى أنّ هنالك فرقًا بين نصيب الوراثة ونصيب التربية ـ أو المحيط ـ بحسب الأفراد؛ فمثلاً: التخلف العقلي والجنون والجرأة والوقاحة والنزق هي من العيوب والأمراض الوراثية. وبعض الأمراض كالسرطان والسل تنتقل من الأبوين كاستعدادٍ وراثيٍّ، وبعد ذلك تأتي ظروف المحيط ونمط الحياة لتمنعَ ظهورها أو لتحفّزَه.

وعلى هذا المنوال أيضًا النشاط الجسدي والقدرة على اتخاذ القرارات والذكاء، وحسن التقدير. فالعوامل الكيميائية والفيزيولوجية والنفسية وعوامل المحيط، إمّا أن تنشّطَ المجالاتِ والاستعدادات الفطرية أو تعيقها.

في هذا المحيط، يمكن أن يتعرض الإنسان لخمسة أنواع من الأسر، وتكون لديه تاليًا وبالضرورة إمكانيةُ نيلِ خمسة أنواعٍ من الحرّيّات، وخمسُ حركات ارتقاء من الأسرِ باتجاه الحرّيّة، هي نفسها سبل التقرب أو الإيمان والفوز:

1 ـ التحرّر من السلطة السياسية أو الاستبداد ـ السياسي = الطاغوت.

2 ـ التحرّر من السلطة الاقتصادية، أو من مالكي وسائل الإنتاج = المترفون.

3 ـ التحرّر من التعلّق بالأشياء.

4 ـ التحرّر الثقافي، أو الخلاص والانعتاق من أسر سُنّة الإلحاد ـ الطاغوتية = الباطل.

---

(1) استوتزل، علم النفس الاجتماعي، ص 51.

5 ـ التحرّر من السلطة الثقافية للكُهّان وفلاسفة الحيوات الدنيّة، وسلاطين الإعلام.

1 ـ التحرُّر من السلطة السياسية:

نحن باستمرار عرضةٌ للأسر السياسي، الأسر في نير القوانين السياسية التي يفرضها الطاغوت، الذي يمارس علينا الضغوط التي سمّاها الله عز وجل «الأصر»، والتي أتت رسالات الأنبياء لتحرّر الناس و﴿...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ...﴾[1]. إن (الأصر) أو الإلزامات القانونية ـ السياسية، يفرضها الاستبداد، أو حق سنّ القوانين بدون قيد أو شرط، والذي يمكن أن نسمّيَه السلطة الحاكمة أو السلطة السياسية. و﴿الطَّاغُوتَ﴾ هو اسم مثل هذا الاستبداد، أحيانًا يكون شخصًا، وأحيانًا كما في الجمهورية الرومانية القديمة وحكومات المدن اليونانية والرومانية القديمة، تتشكل الطبقة الحاكمة من مجلس رؤساء القبائل، أو مجموعة اجتماعية «المدنيون»، أو مجلس الشيوخ الذي اشتُهر باسم «مجلس الملوك».

إنّ مجالس الدول الغربية الحديثة، حتى المنتخَبة ليست بحِلٍّ من هذه الصفة، ويمكن أن يُطلق عليها اسم «الطاغوت»، وهي ليست سوى تحالُف المستكبِرين والمتموّلين.

هذا الأَسر السياسي واقعٌ فرديٌّ، وواقع اجتماعيّ أيضًا على مستوى أمّة من الأمم. بعبارة أخرى، السلطة الحاكمة تفرض قوانينها على الفرد وعلى عامّة الناس وعلى الرعايا الأجانب لأيّ بلد من البلدان. إن الخلاص من براثن هذه السلطة وفكّ القيود والأغلال، هو تحرّر الفرد والأمّة من تلك القيود ومن السلطة السياسية الطاغوتية

---

(1) سورة الأعراف: الآية 157.

وسلطة القوانين الإلحادية، وحين تتحقّق هذه الحرّيّة تحدث ثورة سياسيّة متكاملة وشاملة في البلد، كما حدث في إيران في العام 1978م. في الثورات غير التكاملية وغير التوحيدية، تنتقل السلطة الحاكمة من الطبقة الحاكمة السابقة إلى الطبقة الحاكمة الجديدة، أيْ تنتقل من مكان إلى مكان آخر.

إن دوام الأسر ـ الذل السياسي مرتبط باستمرارِ «تبعيةِ» الناس وطاعتِهم أو طاعة أكثريتهم أو أقليتهم المقتدرة والقادرة للطاغوت، وعدم اقتدائهم بالأنبياء والقادة المحرِّرين: ﴿...وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾[1]، و﴿...فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾[2]، ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾[3].

السبب في أنّ هذه التبعية والطاعة لمثل هؤلاء الحكام وقادة الأحزاب والمنظمات، وحتى الحركات السياسية والثورات، لا تنتج للناس أحيانًا سوى الذل والانحطاط والبعد عن الله والسقوط في مهاوي الحياة الدنيّة وأسر جهنم، هو أن هذه الأوامر والنواهيَ التي تصدر عن أولئك الحكّام والسياسيّين ليس منشأها إلّا العلائق الدنيّة الاستكبارية والدنيويّة، كأيّ عمل وسلوك وسياسة واعية وإراديّة أخرى. فالسلوك السياسي يصدر إمّا عن العلائق السامية أو عن محرّك الحق الفطري [الحنيفيّة]، أو عن الهوى والعلائق الدنيوية الدنيّة، أو عن العلائق الدنيّة الاستكباريّة، وليس هنالك من حالة رابعة في العالم الإنساني، وحدوثها مُحال. يقول الله عزّ وجلّ منبّهًا

(1) سورة هود: الآية 59.

(2) سورة هود الآية 97.

(3) سورة نوح: الآية 2.

إلى هذه الحقيقة، وناهيًا عن اتّباع المستبدين: ﴿...وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ...﴾[1] و﴿...وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[2]، ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾[3].

لتحديد صلاح المجلس التشريعي أو فساده، شرعيته أو لا شرعيته، والآثار التي تنتج عن تطبيق القوانين التي يسنّها بالنسبة إلى الأفراد وإلى الأمّة: أمفسدةٌ هي أمْ تؤدي إلى الارتقاء المعنوي؟ أهي مضرَّة بالأرواح والأموال والحيثية أم أنّها نافعة ومفيدة؟ يجب معرفة أغراض معظم أعضائه وأهوائهم، في كلّ عملية اقتراع، هل هي سامية وحقانيّة أم استكبارية ودنيوية؟ هل يمثلون فضائل الأمّة أمْ رذائلها؟ وما هي غاية المقترعين للشخص المنتخب؟ وهل القوانين التي يشرّعها صادرة عن الأوامر والنواهي الإلٰهية، والأحكام العقليّة المبنيّة على التجارب التاريخية والاجتماعية أم لا؟

2 ـ الحرّيّة الاقتصاديّة:

النوع الآخر من الأسر الذي تبتلي البشرية به في حياتها الاجتماعية ناجمٌ عن حقّ المِلكية المطلق لوسائل الإنتاج ومصادره. فالمسيطرون اقتصاديًا هم الملّاك أو الرأسماليون الليبراليون، الذين يُطلق عليهم اسم «المترَفين». أسراهم في التاريخ القديم وفي أوروبا في القرون الوسطى كانوا العبيد، وفي التاريخ القريب العمالَ الصناعيّين ـ أو البرولتياريا ـ بحسب التعبير الماركسي، الذين كانوا في الدول الصناعية ضحيّة استغلال المِلكية المطلقة غير المقيّدة

---

(1) سورة المائدة: الآية 49.

(2) سورة الأنعام: الآية 150.

(3) سورة النساء: الآية 27.

للرأسماليين والمالكين. وقد ناضلت الاتحادات العمالية والحركات الاشتراكية كلها دون كلل ولا تعب للتحرر من هذا الاستغلال. والاشتراكية فكرٌ، وطرح، وجهد في سبيل التخلص من الاستغلال ونيل الحرّيّة.

قبل ذلك بكثير، ألغت سنّة الوحي الثقافية ـ السياسيّة التوحيديّة، حقّ الملكية المطلق هذا، لتُحِلّ محلّه مِلكيّةً مقيّدةً، لطرق كسبها شروطٌ، وكذلك لإدارتها وكيفية إنفاقها ومواضع هذا الإنفاق، وبما أن الملكَ المطلقَ لله وحده، وحقَّ المِلكية المشروع قرين الواجب والمسؤولية، فقد حدّدتِ السبل التي تمنع تحوّلها إلى سلطة مالكة، وحمّلت المسؤولية للسلطة الحكومية. كذلك مُنع السفيهُ من حقّ التصرف في امواله، ولم يُسمح لصاحب ألأموال بتبديدها هدرًا وإسرافًا، وعُدّ المسرفون إخوان الشياطين، وقُرّر للفقراء «حقٌّ معلومٌ» في أموال الأغنياء.

الأهم من ذلك، أنّ الوحيَ بعد تعريف المجموعات والأصناف، فرضَ عقوباتٍ متعددةً ومتنوعة عليهم، وفوّض إلى الحكومة الإسلامية مهمّة ملاحقتهم وردعهم ومعاقبتهم. كذلك فإن حربًا مستمرة تُشنّ في مجتمع ـ التوحيد ودولته على هذه العوامل المخلّة والمفسدة.

3 ـ التحرّر من التعلّق بالأشياء:

لا يجب الخلطُ بين هذا النوع من الأَسر، وبين أَسر العلائق الدنيّة التي تحدث في المحيط الداخلي. فالعلائق الدنيّة نحن الذين نوجدها في داخلنا، أما متعلّقاتها فموجودة في المحيط الاجتماعي والمحيط الطبيعي والمحيط الدولي. وتاليًا فإنّ «الأشياء» موجودة في المحيط الخارجي وليس في المحيط الداخلي، والآيات التالية تشير إلى هذا النوع من الأسر: ﴿...إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

﴿الْأَنفُسُ﴾[1]، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[2]، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

أيّ أن وجودهم طيلة حياتهم كان مقتصرًا على عشق تلك الأشياء وعبادتها، وعشق ذلك المكان: الملهى، والخمّارة، والمصنع، والحظيرة والمزرعة والمتجر والمصرف والمتحف.. والمقعد في المجلس الطاغوتي، وكرسي رئاسة الجمهورية، وعرش السلطنة[4].

بعد ألف وثلاثمائة سنة من نزول هذه الآيات، تكلّم عددٌ من المفكرين الغربيين وعلماء النفس، ومن بينهم «أريك فروم» على تحوُّل الإنسان في هذه الحياة في المجتمعات الغربية إلى مسخ، وإلى شيء وسلعة[5].

4 ـ التحرّر من السنَّة الثقافية ـ السياسية الإلحادية الطاغوتية:

لنحيا، نحن بحاجة إلى تعلّم علوم الحياة، وإلى درس يعلّمنا كيفية الحياة والموت. للعيش نحتاج إلى دروس في الصحّة وإلى إرشاد الأطباء، وللحياة الإنسانيّة والحياة الطيّبة الأسمى نحتاج إلى درس الدين والإيمان، ليعلّمنا سبل التقرب والارتقاء المعنوي وانفتاح الشخصية، كتابُه القرآن ومعلّمه الله والأنبياء ـ وهم علماء الدين ـ بحسب مراتبهم العلمية ـ وبحسب السنَّة الثقافية ـ السياسية

---

(1) سورة النجم: الآية 23.
(2) سورة هود: الآية 116.
(3) سورة الأنبياء: الآياتان 13، 14.
(4) هنالك حديث مفاده أن كل إنسان يصبح ما كان يعبده.
(5) انظر: المجتمع السالم، إنسان لذاته...

التوحيدية السائدة في كل إقليم ومجتمع كبير. وهو إرث ثقافيّ له أدبياته، وينتقل من الجيل السابق إلى الجيل الحاضر وينساب إلى الأجيال القادمة. إلى جانبه تسُود السنَّة الإلحاديّة الطاغوتية، التي هي العلم والفلسفة ودرس الحياة الاستكبارية، أو الحياة الدنيوية الدنيّة، أو الحيوانية المحضة وما دون الحيوانية...

الفرد منا لا يملك سوى إمكانية بعض التحوّلات العامة انحطاطاً أو سموًّا، وأن يختار إحدى الحياتين: إمّا الحياة الدنيّة الاستكبارية الدنيويّة، أو الحياة الإنسانيّة السامية والطيّبة. وهو قادر كذلك أن يكون حيوانًا محضًا وحتى دون الحيوان: شيئًا أو سلعة. ومن المستحيل أن يجمع الإنسان الحياة الدنيّة والحياة السامية في آن معًا.

يعبّر السيد المسيح (ع) عن هذه الحقيقة بقوله: «لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيّدَين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحبَّ الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وتشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس...»[1].

لكنَّ اختيار الإنسان للحياة الدنية أو للحياة السامية، على الرغم من أنه يتطلب قدرةً وإمكانيّةً بنيوية، فإن عوامل المحيط شديدةُ التأثير فيه كذلك، وإمكانية وعيه لها والمقارنة في ما بينها مرتبطان بمكان ولادته وزمانها. أوُلِدَ في عائلة موحِّدة، أم في عائلة ملحِدة، هل تعلّم من أبوَين صالحَين واقتدى بهما، أم من أبوَين طالحَين؟ وما

(1) إنجيل متّى، الإصحاح السادس.

هي السنّة التي تسُود في مجتمعه؟ وما هو ثمن انقطاعه عن سنّةٍ واتّباعِه أخرى، وتغييره لنمط حياته؟ وما هي قدراته العقلية، ومدى تفرّغه للتعلّم وللتفكير والبحث والسؤال حول معاني الحياة؟

لقد أثبتت المشاهداتُ الاجتماعية أن السنّة السائدة وسيلةٌ يتعلم الطفل من خلالها شيئًا من العادات الأخلاقية، ومن ذخيرةِ العلم المتراكم، وعقائد أجداده وطريقةِ حياتهم وتقاليدهم.

إنّ تأثيرَ التقليد أقوى من مهارة العجائز للأخذ عنهم. كما أن قوة اكتساب الطفل من محيطه أهمُّ من جميع الأساليب ذات الدوافع الخارجية. في الوقت نفسه ليس بإمكان الطفل أن لا يتأثر بكبار السنّ في البيئة البيتية، وبالمدرسة، وبالدولة الحاملة لسنّة خاصّة، أو أن يهرب من ذلك. وتختلف الظروف من مرحلة عمريّة إلى أخرى. ففي مرحلة البلوغ والشباب يكون التفاعل الاجتماعي أوسعَ وأكثر تنوّعًا، وبخاصة لمن يقرأ ويكتب، ومن كان من أهل المطالعة والتفكير.

في كلّ الأحوال والظروف، لا شكّ في كون هاتين السنَّتين حاملتَين وناقلتَين للحياة الإنسانية والحياة الطيبة، وكون السنَّة الإلحادية ـ الطاغوتية حاملةً وناقلة للحيوات الأربع الدنيّة وللنظام السياسي المستبد، والأرضية الممهّدَة للأسرِ السيّاسي، والأسر الاقتصادي لعامّة الناس، لمصلحة المستكبرين والمترفين.

لهذا السبب وليتمكنَ الإنسان من تأمين حياته وتطوره المعنوي، يجب أن يكون حساسًا بالنسبة إلى العادات والتقاليد والإرث الثقافي العامّ لأجداده، ويكفّ عن تقليدها تقليدًا أعمى، وأن يفكر فيها وفي تأثيرها في حياته وفي حياة الآخرين، وأن يبحث ويدرس ويتعمق، ليتمكن من تمييز التقاليد والعادات والأفكار والأحكام

والأوامر والنواهي المستحبّة التي تخدم الحياة فيلتزم بها، ويبتعد عن الأخرى المضرّة ويعمل على فضحها ورفضها وإبطالها.

لقد كان الإرث الثقافي للإلحاد وللشرك والاستبداد والاستعباد طيلة التاريخ يقف سدًّا منيعًا في وجه الهداية الإلٰهية ورسالات الأنبياء التحريرية[1]، وسنّتهم الثقافية السياسية التي سمّاها الله عز وجلّ السنّة الإبراهيمية، التي وصلت من إبراهيم إلى اسحق ويعقوب[2]، وإلى نوح، وإلى آدم... أما السنّة الثقافية ـ السياسية الإلحادية، فقد عدّها في عشرات الآيات سنّةً واحدةً جارية في التاريخ والأقاليم والمجتمعات المختلفة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾[3].

طيلة التاريخ وحاملو هاتين السنَّتين المتضادّتين في صراع ونزاع دائمَيْن، والاجتياح الثقافي للمستكبرين والمترفين وكهّانِهم القدماء والجدد وسلاطين إعلامهم مستمرّ على عامة البشر، وعلى الدين وأتباع السنّة التوحيدية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾[4].

على الناس أن يقاوموا هذا الاجتياحَ الثقافي ـ السياسي، لصون ِ أنفسهم من الانحطاط ومن الأسر والذلّ، أو لنيل الحرّيّة ـ العزّة

(1) سورة الزخرف: الآيتان 8 و22؛ سورة البقرة: الآية 130.

(2) سورة يوسف: الآية 38.

(3) سورة الصافّات: الآيتان 64 و70.

(4) سورة العنكبوت: الآية 12

والرشد المعنوي. إن أول شرط من شروط المقاومة، وأوّل خطوة في هذا السبيل أن يكونوا حسّاسين بالنسبة إليها ومتنبّهين، وأن يكونوا واعين لآثار ما تلقيه وتلقّنه وتبثّه الأدوات الثقافية ـ السياسية للطاغوت وللمستكبرين. وهذا الوعي غير ممكن إلّا بإعمال العقل والتفكير والتعلم من أهل الرأي وعلماء الدين الحقيقيين.

إنّ التقوى الثقافية ـ السياسية تستوجب أن لا يتقبّل الإنسان أيَّ شيء من السنَّة السائدة في المحيط بدون إعمال تفكيره ووعي ماهيتها وآثارها عليه وعلى الناس، وإذا اعتنقها من طريق الخطأ أو وقع تحت تأثيرها في مرحلتي الطفولة والشباب، عليه حين يبلغ سنّ الرشد أن يُعمل عقله الذي هو الجزء الوجودي الأرفع في بنيته الموروثة، ليميّزَ طريق الرشد من طريق الانحطاط.

يجب أن يكون اتّباع أيِّ طريق أوعادة، وأيِّ أمر ونهي وأيٍّ قانون وسنّة وأيِّ شخص، من طريق العلم والمعرفة، وليس اتّباعًا أعمى وبدون تفكير وإعمال للعقل وسؤال وجواب وبحث وتحقيق:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴿٣٦﴾﴾[1]. (السمع والبصر والعقل هي أدوات المعرفة ونعمٌ من الله وُهبَت لك لتستعملها)، وستُسأل يوم القيامة: هل أعْمَلْتها أم لا، وهل عَمِلت بحاصلِ عملِها أم لم تعمل، وهل عملت بكل ما سمعتَه ورأيتَه، بدون تقويم صحّته من سقمه، وبدون تحليل عقلاني، أم أنك عملت به بعد التحليل والتقويم والاستنتاج المنطقي والمعقول؟.

الآية الكريمة تنهى عن اتّباع الأشخاص والطرق والعادات

(1) سورة الإسراء: الآية 36.

والتقاليد والمناهج والقوانين والأحكام والأوامر والنواهي وقرارات المجلس، والسّنن السائدة في المجتمع والأحكام الإدارية والأهداف الحزبيّة، بدون العلم بها والعلم بصحّتها وحقّانيتها، والآثارِ المؤدّية إلى الرشد المترتّبةِ على استعمالها وتنفيذِها. وتأمرك أن لا تصدّق الخبرَ ولا تنقله قبل أن تعرف صدقَه من كذبه، ولا تتبع من لا تعرف إن كان يحيا حياة طيّبة ومن الصالحين... هذا هو الحدّ الأدنى من العمل المنحصر بالتقوى... يجب أن تفكّر وتطالع وتدرس وتبحث وتحقق لتحصل على السنّة التوحيدية ـ الوحيانيّة، سنّة الرشد المعنوي، والخلاص والحرّيّة ـ والعزّة، والقرب من الحق، وإلّا ستقع فريسة أسر الباطل ـ السنّة الثقافية الإلحادية والسنّة السياسيّة الطاغوتية. ستكون خاضعًا وتابعًا للكهّان وفلاسفة الحياة الدنيّة وللمستكبرين والمترفين المستبدين، والطاغوت وسلاطين الإعلام: مظلومًا محرومًا، ذليلاً، جاهلاً، أعمى، أصمّ، بدون عقل، وفي الظلمات.

وبعد الموت، وأنت على هذه الحال التي أوجدتها لنفسك واستسلمت لها، ستكون مع أقرانك في محيط مشابه للذي ارتضيتَهُ في هذه الحياة لنفسك، والذي شاركْتَ في إيجاده.

وما من شكّ في أن عاقبة العاصين لأمر الله ستكون أوخمَ العواقب، جهنمَ يصلَوْنها فبئس المَهاد...

5 ـ التحرُّر من سلطة فلاسفة الحياة الدنيّة، والكهّان القدماء والجدد وسلاطين الإعلام:

يحدث الوقوع في أسر الباطل من طريق التعلّم والاكتساب؛ وللاكتساب أيضًا صور عديدة، كحضور المؤتمرات التي يعقدها أهل الباطل ـ المتحضّرون ـ ومعاشرة المثقّفين الفاسدين وحضور دروسهم، والاستماع إلى وسائل الإعلام الطاغوتية، الاستكبارية،

الاستعمارية. ولذا فإنَّ أسر الباطل توأمٌ لأسر الكهّان وفلاسفة الحياة الدنيّة وسلاطين الإعلام وأدعياء الحداثة من علماء الاجتماع والإناسة. وكما أن هنالك فرقًا بين درس الحق ودرس الباطل، هنالك فرق بين معلّمي هذين الدرسين، وإن تشابهت أحيانًا أساليب التدريس والتربية.

وإذا كان الدين الموحى به هو فلسفة الحياة الطيبة ودرس الحرّيّة والعزّة، ودرس الكرامة ودرس التقرب إلى الله، فإنّ الباطل هو درس فلسفة الحياة الدنيّة، أيّ درس الأسر والذلّ والمهانة، الذي يمهّد الأرضيةَ للتسلّط والاستبداد واكتناز الأموال والاستكبار. وفي الحالتين يثمر انحطاطاً وبعدًا عن الله.

إن معلم الدين الوحياني أو فلسفة الحياة الطيبة هو الله الخالق المتعال وأنبياؤه وعلماءُ الدين المنزَّهون عن هوى النفس والرغائب؛ أما الذين يطيعون أمر مولاهم الحقيقي، معلم الباطل وفلسفة الحياة الدنيّة فهمُ الكهّان الذين أُطلقت عليهم في التاريخ أسماءٌ عديدة، وكانت لهم أعمال وحِرَفٌ وأدوار اجتماعية واحدة. في أوروبا القديمة كان يدعى «جِنز» في مجتمع العائلة ـ القبيلة وقبل العصر المدني، وفي إيطاليا «باتريسيوس»، وفي العصر المدني «الملك» ـ بروتانيس أو كاهن معبد الأجداد؛ وفي اليونان في عصر تريبدس وغنوس (الأوباتريد)، وفي العصر المدني الأول «آرخُن»، وفي العصر المدني الثاني «آرخُن» و«الملك ـ وستاليس» أو كاهن معبد الأسلاف، وفي عصر الحداثة عالِم الاجتماع والفيلسوف السياسي وفيلسوف القانون.

لا يجب الاعتقاد أن الأميّين وحدهم قديمًا وحديثًا المتأثرين بالكهّان وبمعلمي السنّة الإلحادية وأدعياء العلم الاجتماعي والعلوم الإنسانية، هم الذين يقعون في أسر الباطل.

يقول آريستوفان[1]: «يؤمن الأثينيّون إيمانًا راسخًا بالكهانة، والتطيّر وعلامات النجوم وتأثير أحشاء الحيوانات المذبوحة قرابين على أقدام أسلافهم المستبدّين»، ويقول كزانوفون[2]: «إنّ سقراطَ كان يؤمن إيمانًا راسخًا بالكهّان، وبالخرافات والأوهام، وكان يعود لاستطلاع أموره إلى أحشاء الحيوانات المذبوحة قرابين، وكان يلجأ دائمًا إلى الكهّان الذين كانوا يدّعون معرفة الغيب».

كان بيندار[3] ـ أكبر شعراء الغزل اليونانيين ـ يؤمن إيمانًا راسخًا بألوهية الحكّام المستبدين في المجتمع، حتى بعد موتهم وتفتّت عظامهم، حيث يقول عن الكهان الذين يقدّمون القرابين إلى النار التي يشعلونها تكريمًا لذكرى أسلافهم الفاسدين: «قرابينهم في المحرقة هي التي تحفظ سعادة الدولة المدنيّة». في الديمقراطيات القديمة في أوروبا لم يكن أحد يحكم عدا الكهّان. حكومات تلك الديمقراطيات كانت تنفّذ القوانين فقط، ومجلس الشيوخ كان أعلى مقامًا ومؤلّفًا من خمسين من الحكماء (الكهان) والخطباء المنتخَبين بالقرعة. . .

يصوّر ـ آريستوفان في مسرحيته «قادة الجيش»، عامة الناس يجلسون على المقاعد الحجرية بدون حراك يُصغون بكلّ جوارحهم إلى الخطباء وأفواههم مفتوحة من شدّة إعجابهم. وقد وصف سائر المؤرخين والخطباء اليونان في آثارهم هذه الاجتماعات وذكروا أسماء الخطباء الكبار أمثال بريكلس وأسنخيس وديموستين وغيرهم.

---

(1) أحد كبار شعراء أثينا، وُلد حوالى العام 450 ق.م، وتوفّي في العام 388. كانت مسرحياته في الدولة المدنية في أثينا مؤثرة كالصحف والمطبوعات الحديثة.

(2) تلميذ سقراط مؤلّف «عودة عشرة آلاف نسمة».

(3) وُلد في العام 521 ق.م، وتوفّي بعد العام 440.

الحداثة امتداد لهذا الوضع، وبدلاً من الخطباء هنالك وسائل الإعلام، والمتحدّثون والمحاضِرون وعلماء الاجتماع والعلوم الإنسانية.

وإذا كان كهّان العصور القديمة يعتمدون على النجوم، والتطيّر وأحشاء القرابين لمعرفة ما فيه مصلحةٌ للمجتمع أو ضررٌ ومفسدة، فإنَّ كهان الحداثة، يكشفون ذلك من خلال «البيئة الاجتماعية»، ويعتقدون أن البنية الفكرية والاعتقادية والروحية للأشخاص، وحتى أخلاقهم وسلوكهم وشخصياتهم هي نتاج البيئة الاجتماعية. لقد احتلت «البيئة الاجتماعية» ابتداء من القرن الثامن عشر وما بعده بأمر من أصحاب السلطة من السياسيين والاقتصاديّين الجدد، وبواسطة كهّان الحداثة في الإيديولوجية الليبرالية مكانَ «الخالق»، و«إرادة الإنسان».

احتلَّ الكهّانُ القدماء والمحدَثون، المحافظون على سنن الشرك والطاغوت والإلحاد في المجتمع، مكانةَ الأنبياء والرسل في عقيدة التوحيد. واسمهم في عقيدة التوحيد «الشيطان»: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾[1]، أي أنهم يقبلون الخضوع له والوقوع في أسره، الذي هو أسرٌ ثقافي لهم.

﴿...إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾[2]، والشيطان عدُّو الإنسان، عدوّ ابن آدم، جادلَ الخالق بشأنه، وأعلن أنه سيُضِلُّه ونسلَه إلى يوم الدين، إلّا قلة قليلة منهم[3].

... هنالك صراع مستمر بين الصالحين وبين أتباع الشيطان

(1) سورة الحجّ: الآية 3.
(2) سورة مريم: الآية 44.
(3) سورة الإسراء: الآيات 56، 65، 67.

متعدد الأشكال والصور، صراع ثقافي ـ أو تعليمي وتربوي ـ في داخل كل مجتمع وكل إقليم وكل حضاره، ينفُذُ أحيانًا إلى داخل العائلة الواحدة، يدفع قابيلَ إلى قتل أخيه هابيل، ويدفع إبراهيم إلى التصدي لأبيه ـ أو لرئيس قبيلته ـ وأبا لهب وزوجته لإيذاء الرسول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ. . .﴾[1]. في بعض الأحيان يعمد الأشرار ـ أو شياطين الإنس ـ والجنّ أو الموجودات غير المرئية إلى تلقين الباطل والتعاليم المضلّلة والتربية الفاسدة والاستكبارية والدنيوية وأمثالها. . .

سمة الأشرار ـ من الإنس والجن ـ الأولى هي التأثير في أذهان الناس من خلال الحرب الثقافية على الدين والوحي والأنبياء والأتقياء والمستضعفين. والسمة الثانية استثارتهم للعواطف والمشاعر والانفعالات: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾؛ المفسدون من الناس في معظمهم مرئيون، لكن هنالك عناصرَ مفسدة بينهم هم «المنافقون» يعملون في الخفاء.

العناصر المفسدة غير المرئية يمكن معرفتها بقليل من إعمال الفكر والتأمل والبحث العلمي، وتصبح بالنسبة إلينا مرئيّةً، «الهوى» عنصر مفسد غير مرئي أو «خفي»، لكنه لا يبقى خفيًا بعين البصيرة والعقل.

إن عمل العناصر المخلّة والمفسدة في المحيط الاجتماعي مرتبط بأحوالنا، ولهذا السبب فإن عملها كعمل المحركات العضوية ظاهر حينًا وخفيّ حينًا آخر. فهي مرئية حين تؤثر وتلفت انتباهنا، وخفيةٌ حين يتوقف تأثيرها ولا تثير انتباهنا.

---

(1) سورة الأنعام: الآية 112.

كذلك فإن تحركات الشياطين الثقافيين من الإنس في المحيط الاجتماعي خفية آنًا وعلنية في آنٍ آخر. كما كان حال المنافقين في المجتمع الإسلامي في المدينة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ ... ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾[1]. الشياطين الثقافيّون ـ السياسيون لديهم أيضًا حالتان: مرئيّة وخفيّة، هم مرئيون كبشر، لكن حين تكون أعمالهم خفيّة، في إطار منظمة سياسيّة سرّية، يُعدّون غير مرئيين (من الجن)، وحين يتلبسون الحالتين فهم الذين تطلق عليهم صفة «الخنّاس». ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾[2] ... شياطين الإنس الذين يقفون في وجه كل نبيٍّ مخالفين ومعارضين هم الكافرون، وبالتحديد الفريقان الاجتماعي والدولي من المستكبرين والمترفين.

الكفار المستكبرون يعملون على «الإفساد في الأرض» ويسمّوْن «المفسدين في الأرض»، مقابل «المصلحين».

المتمولون، وُصفوا بأنهم «مترفون»: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ ﴿...وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾...

بين المستكبرين والمترفين عدة أوجه شبه منها وقوفهم حائلاً بين الناس وبين الإيمان ومسيرة التقرّب إلى الله. ويجاهدون لتحريف دين

---

(1) سورة البقرة: الآيات 8، 14.

(2) سورة الأنعام: الآيات 116، 119.

الله واستبدال طريق الضلالة بطريق الإيمان. في الوقت الذي لا يملك فيه المستضعفون أمر أنفسهم: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾[1]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾.

تطرح هنا ثلاثة أسئلة: الأول: لماذا يريد الكفار من المستكبرين والمترفين أن يصدّوا الناس عن «سبيل الله»، ويدفعوهم إلى طريق الغيّ والضلال؟ الثاني: كيف يتمكّنون من إطفاء نور الله؟ الثالث: لماذا لم يوفّقوا على الرغم من محاولاتهم طيلة التاريخ أن يُحِلّوا طريق الغيّ بديلاً من «سبيل الله»، أو مسيرة الإيمان والتقرّب إلى الله؟.

المستكبرون بسبب طبيعتهم لا يقنعون بتكديس الأموال واجتياح البلاد، وبالمناصب والشهرة، ولا يرضون إلّا بأنواع أخرى من الأذى والفساد، أو بحسب تعبير الوحي القضاء علىٰ «الحرث والنسل» وسياسة الاستضعاف: ستالين، هتلر، بوش، شارون، وصدّامُ نماذُج من هذه الجماعة.

لكنّ الدين الذي هو فلسفة الحياة الطيّبة يرتقي بالناس المستضعفين من الحياة الحيوانية وما دون الحيوانية إلى الحياة الإنسانية ـ حياة التعقل وحياة الحرّيّة، وتاليًا إلى الحياة الطيبة، التي هي طريق ونهجٌ فُرش كل شبر منه بالجهاد وبمقاومة المستكبرين والمترفين وسائر العناصر والعوامل المخلّة والمفسدة، وتُحطَّم في هذا السبيل جميع أنواع الأَسر ومن بينها أَسر الباطل والأسر

---

(1) سورة إبراهيم: الآيتان 2، 3.

السياسي، لنيل الحرّيّة والعزّة والقوّة وامتلاك الأرض والنِّعم الإلٰهية.

والمستكبرون الذين يستغلّون المستضعفين لعيش حياتهم الدنية، لا يتمكنون في غياب المستضعفين من الميدان الاجتماعي والمحيط الدولي من إشباع غريزتهم الاستكبارية، فهم بحاجة إلى طُعمٍ باستمرار. لذلك طالما أنهم على قيد الحياة لا يتيحون للمستضعفين أن يخطوُا خطوة في طريق الخلاص والحرّيّة والعزّة والنّصر: يؤذونهم ويلومونهم: ﴿...ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾[1]، يُزيّنون للناس ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ...﴾ ﴿...وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾[2]..

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[3]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾[4].

الجواب عن السؤال الثالث هو التالي: من جهة، الدين الذي هو تعاليم وأحكام ـ وقوانين ووصايا، للارتقاء المعنوي أو التطور التكاملي للإنسان بيدهِ وبإرادته، والذي يتطلب ثورة وتغييرًا للنظام الاجتماعي لإيجاد الفضاء الملائم للارتقاء والكمال، والذي يتضمن مشروعًا للإنسان المتعالي ومشروعًا للتنظيم الاجتماعي، وفي المقابل الأدعياء الضّالّون المضلّلون والكهّان القدماء والجدد، يلقنون الناس طرقًا ومناهج أخرى للحياة وللسلوك وللتنظيم الاجتماعي، أو يفرضونها عليهم.

---

(1) سورة التوبة: الآية 33؛ سورة الأحزاب: الآية 48؛ سورة المائدة: الآيات 60، 63، 64.

(2) سورة آل عمران: الآية 14.

(3) سورة البقرة: الآية 212.

(4) سورة محمد: الآية 14.

نتج عن ذلك رواجُ عدة نِحَلٍ معروفة عالميًّا، وعدة نظريات ومذاهب حقوقية ـ سياسيّة بين البشر. وقد نشأت في نطاق السلوك المتعالي والارتقاء المعنوي النحل التالية:

1 ـ نِحلة التضحية والتعاليم الفيدائية التي ظهرت في آسيا المركزية، وانتشرت بعد الحملات العسكرية للشعوب الآرية في شبه القارة الهندية وأوروبا الجنوبيّة، ولا تزال موجودة في الهند حتى اليوم[1].

2 ـ نِحلة التفكير في أربعة أشكال:

أ) التفكير العامّيّ.

ب)التفكير العلميّ.

ج) التفكير الفلسفيّ.

د) التفكير النفعيّ[2].

3 ـ نِحل الزهد أو عدم الاكتراث بالدنيا وبنعَم الحياة الدنيا[3].

4 ـ نِحلة الرياضة والمجاهدة وإماتة النفس، والحياة دون الحيوانية، والتي تسير على هَديِ عقيدة التوالد والتناسخ[4].

5 ـ نِحلة العشق الإلٰهيّ[5].

---

(1) انظر: **علم التعالي**، ج1، ص 125، 131.

(2) المصدر نفسه، ص 135، 154.

(3) المصدر نفسه، ص157، 170.

(4) المصدر نفسه، ص173، 213.

(5) المصدر نفسه، ص217، 230.

6 ـ نِحلة العشق المَجازيّ[1].

7 ـ نِحلة المراقبة الذاتية، أو العرفان[2].

8 ـ النِّحلة الوجودية.

9 ـ أنموذج الإنسان البالغ لغوردون آلبورت (1897 ـ 1967م)[3].

10ـ أنموذج الإنسان الفاعل لكارل روجرز (1902 ـ).

11ـ أنموذج الإنسان المنتج لأريك فروم (1900 ـ 1980م).

12ـ الإنسان المريد تحقيق ذاته لآبراهام مَزلو (1908 ـ 1970م).

13ـ الإنسان الفرد لغوستاف يونغ (1875 ـ 1961م).

14ـ الإنسان المتجاوز ذاته لفيكتور فراكل (1905 ـ ؟).

15ـ إنسان هذا المكان وهذا الزمان لفريتس برلز (1970 ـ 1983م)[4].

في مجال التنظيم الاجتماعي يمكن أيضًا مراجعة تاريخ فلسفة الحقوق وتاريخ الفلسفة السياسية، ورؤية ماذا أنتجا.

القرآن الكريم يتضمن تاريخ النتاج الثقافي للأسر ـ المذلّ، ويروي عن أقدمها قصة آدم وحّواء في الجنّة والنعم التي كانا يرفلان فيها. . . لكنّ عيبيَن أو أكثر وُجدا في بنيتهما الفطرية ـ المحيط

---

(1) **علم التعالي**، ج1، ص233، 268.

(2) المصدر نفسه، المجلّد الثاني.

(3) انظر: دو آن شولتس، **علم نفس الكمال**، ترجمة: گيتي خوشدل، منشورات «نو».

(4) المصدر نفسه.

الداخلي ـ وعامل مفسد في المحيط الاجتماعي، عَمِلا معًا على سلبهما تلك النّعم.

النقيصتان أو العيبان هما:

1) «الهوى» أو [الشحّ] أيِ الميل الفطري إلى كل ما هو موجود وإلى الخلود.

2) والعيب الذهني أي قابلية الانخداع والضَّلال والحِرص واستبدال الشر بالخير.

أما العامل المخلّ والمفسد الموجود الشرير (= الشيطان)[1] فمشهود ومحسوس[2] في الأعمال والذهن والتفكير والاستدلال، والقول من خلال اليمين الكاذبة، والشهادة الزور والغش والخداع والحيلة والتذاكي كالإنسان وعلى مثاله. يمكن القول هنا: إنه من شياطين الإنس، ومعروف أيضًا. وقد عرّف الله عز وجل آدم وحوّاء به كنايةً وبصورة مباشرة وغير مباشرة، وحذّرهما من وساوسه، ومن دعواته: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾[3].

قبل أن يوسوس الشيطان لآدمَ وحوّاء لم يكونا قد تلقّيا من الله

---

(1) يقول الراغب الأصفهاني، المتوفّى في العام 502هـ: الشيطان اسم كل موجود غير مرئي والإنسان والحيوان المفترس والمؤذي. المفردات، ص261. كما أنه يعدّ الشياطين في الآية ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الأشخاص المتمردين والوقحين في ذلك الزمن؛ كما أنه يعدّ الحسد والغضب الشديد الذي لا يضبطه عقل ولا إيمان شيطانًا.

(2) الميزان: ج1، ص248، 249.

(3) سورة طه: الآيتان 120، 121.

عز وجل بعدُ سوى القليل من الهداية، ولم يكن لديهما تجربة تاريخية يستطيعان من خلالها أن يفهما بشكل أفضل تعاليم الوحي، أو التجربة التي تتيح لهما تنمية عقلَيهما في ضوء التعاليم بعد تفكيكها وتحليلها. وحين خضعا للتجربة الكبرى المفيدة وفكّرا فيها استنتجا صِحَّة التعاليم الإلٰهية وعلِما حكمة الولاية الإلٰهية لهما ولذريَّتهما ـ أي الأجيال القادمة ـ. خلاصة التجربة التي مرّا فيها: أن الشيطان بعد أن علم بالمنع وسوسَ لهما لتتوضح لهما نقاطُ ضعفِهما ونقائصُهما التي كانت خافيةً عليهما، وقال لهما: إنَّ الله منعَهما وحذّرهما من تلك الشجرة كي لا يصبحا ملاكين أو خالدين، وأقسم لهما أنه مشفق عليهما، وهكذا أوقعهما بالحيلة في شِباكه. وحين أكلا منها وأدركا أنهما لن يصبحا مَلَكَيْن ولا خالدين، ظهرت لهما سَوْءاتُهما، فأخذا يخصِفان من ورق الجنَّة ليواريَاها (كناية عن البحث عن الوسيلة للتخلص من الخطأ والعيب، والتجمّل المادي وسيلةٌ لستر العيوب الأخلاقية ونقصان الكمال المعنوي)، فناداهما الله، وذكّرهما بتحذيره لهما من تلك الشجرة، وبقوله: إنَّ الشيطان عدوٌّ لهما. اعترفا بخطئهما وطلبا الرحمة فاستجاب دعاؤهما وشملتهما الرحمة الإلٰهية... وبمواجهتهما للعوامل المفسدة وجَدَا الطريق المستقيم، وكان أمرُ الله أن يعيشا على الأرض وفيها يموتان، ومنها يُبعثان هما ونسلهما، فيُحاسبَون على ما فعلَت أيديهم، يوم يكون الشياطين وأتباعُهم من الإنس لجهنمَ حطبًا.

ومن ثم يريان ونسلَهما أن مستقبل الإنسان ـ الحياة بعد الموت ـ مرتبطٌ بأفعاله في هذه الحياة الدنيا وبأفعاله وردود أفعاله بالنسبة إلى العوامل المخلّة والمفسدة في المحيطات الأربعة، بحيث إنّه إذا اتَّبعها سيحمل أوزارها قيودًا في عنقه وجسده أو روحه وعقله، وسيجعل نفسه فريسة آثارها المدمّرة والمشؤومة، ويتحمل إذلال

الطاغوت وأغلالَه، وبعد الموت سيستمرّ تحمله «للأُصُر» و«الأغلال» التي تقيده في عالم البرزخ، أو على العكس من ذلك، ينجو وينال الخلود.

ويقول الله عز وجل بالنسبة إلى هذه النقطة والدروس المستفادة منها: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

إنّ للفّظة «اللباس» في الآية دلالتين: أولاهما المعنى الظاهر من «اللباس» وهو ما يستر به الإنسان بدنه فيقيه الحرَّ والبرد وسائر عوامل المحيط الطبيعي، والمعنى الثاني من اللباس، الدفاع والمحافظة، كما ورد في الآية الخمسين من سورة الفرقان، حيث صوّر الله عز وجل الليل «لباسًا»، وفي الآية الثمانين من سورة الأنبياء صوّر «اللباس الحديد» نعمةً وعلمًا مفيدًا لداودَ ومن معه ليدافعوا به عن أنفسهم، وفي الآية 187 من سورة البقرة: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ﴾، جاءت لفظة اللباس هنا استعارةً، فإنّ كلًّا من الزوجين يمنع صاحبه من اتّباع الفجور وإشاعته بين أفراد البشر، وكلًّا منهما لصاحبه لباسٌ يواري به سوءاته ويستر به عورته ويتّقي به صاحبه من الرفث إلى غيره. وهذا المعنى الثاني للَفظة اللباس التي وردت أعلاه، مرتبط بالعفّةِ والتقوى التي تحفظ الإنسان من وسوسة شياطين الجِنّ والإنس...

---

(1) سورة الأعراف: الآيتان 26، 27.

الفصل السابع

المصطلَحات

النجاة: نجا بنفسه نجاةً ونجاءً، ونجّى غيره منجاةً، وأنجاه إنجاءً.

المنجِّي: المخلّص، والناجون: المتحرّرون.

إن كلمة النجاة تُستخدم في اللغتين العربية والفارسية للتعبير عن السّير الإرادي من الأسر إلى الحرّيّة، وهي أدق لفظة للتعبير عن التحرّر والخلاص من المهالك، والارتقاء وصعود درجات التقرّب بسرعة[1]. معنى هذه اللفظة في الأصل الانفصال عن المنخَفَضِ والعناصر المهلكة، والوصول إلى مكان مرتفع وآمن، كالصعود من أعماق اللُّجَّة إلى الساحل المرتفع[2].

---

(1) يُستخدم الفعل للتعبير عن السرعة في السّير أيضًا.

(2) الرّاغب الأصفهاني، المفردات المتوفّى في العام 502هـ؛ سورة الإسراء، الآية 67؛ سورة العنكبوت: الآية 65؛ سورة لقمان: الآية 32؛ سورة يونس: الآية 92.

استُخدمت كذلك تعبيرًا عن الارتقاء من حالة الغمّ والحزن[1]، ـ وأسوأ من ذلك: الغم الشديد والكرب العظيم ـ إلى حالة الفرح والهدوء[2]. وللخلاص من أيّ نوع من أنواع الذلّ والانحطاط والذلّ والارتقاء إلى القمة العلمية والأخلاقية والمعنوية[3]، وتعبيرًا عن الخلاص من السّجن[4]، ومن أيّ نوع من أنواع الأسر، أو الخضوع أو الذل، أو الإيذاء والتعذيب، وعذاب هذا العالم، وتعبيرًا عن الحياة بعد الموت: البرزخ والقيامة.

النجاة من المحيط الفاسد، ومن الناس المنغمسين في المفاسد: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[5].

النجاة من حكم الظالمين وأَسرِهم[6]، ومن الثقافة الفاسدة، والتقاليد والعادات والقوانين والعقائد الباطلة والمفسدة[7]، النجاة من فرعونَ وعملِه أو من سياسته وتشريعاته وحكومته[8]، النجاة من الكافرين ومحيط حياتهم وسلطتهم[9]؛ النجاة من الاحتلال ومن سلطة العدّو الاستعمارية[10]، وأخيرًا النجاة من الحياة الدنيّة التي

---

(1) سورة الأنبياء: الآية 88.

(2) سورة الأنبياء: الآية 76؛ سورة الصافّات: الآيتان 76، 115؛ سورة الأنعام: الآية 62.

(3) سورة الأعراف: الآية 89.

(4) سورة يوسف: الآية 42، 45.

(5) سورة الأنبياء: الآية 74.

(6) سورة القصص: الآية 25؛ سورة المؤمنون، الآية 28.

(7) سورة الأعراف: الآية 89.

(8) سورة الدخان: الآية 30؛ سورة التحريم: الآية 11؛ سورة إبراهيم: الآية 6.

(9) سورة يونس: الآية 86.

(10) سورة طه: الآية 80.

تستوجب ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ في الآخرة[1].

في هذه الآيات الكريمة [من 3 ←13] استُخدمت لفظة النجاة، فضلاً عن السّير الإرادي للإنسان من حالة الأسر والخضوع لسلطة الآخرين السّياسيّة، ومن حالة الانحطاط إلى حالة الحرّيّة، للتعبير كذلك عن إنجاء الآخر وليس فقط نجاة النفس.

الإنجاء بمعنى أنَّ هنالك من يساعدنا بشكل من الأشكال لنقاوم عوامل المحيط المفسدة، أو للقضاءِ قضاءً مبرمًا على الإخلال والفساد. وأفضل الطرق في هذا السبيل تعليمُنا أساليبَ مقاومة هذه العوامل المفسدة في المحيطات الأربعة: الداخلي والطبيعي والاجتماعي والدّولي، والوسائل الكفيلة بتحريرنا، وسلوكنا سبيل التقرّب إلى الله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2]، بواسطة رُسُله وأنبيائه وكتبِه وتعاليمه التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، للخلاص من «الأصُر» و«الأغلال».

وهكذا فإنّ رسالة الأنبياء، التي تهدف إلى مساعدة الناس للفوز، تقربًا إلى الله، والتخلق بالأخلاق الإلهيّة، تساعدهم كذلك في مسيرة الانتقال من أنواع الأسر إلى أنواع الحرّيّة والعروج إلى الدرجات الأعلى.

الأنبياء هُداة الناس ومعلّموهم السّبلَ التي تقرّبهم إلى الله سبحانه وتعالى هم المحرّرون والمنّجون لهم.

أتباع الأنبياء وبخاصة العلماء الأتقياء الصالحين، الذين هم كأنبياء بني إسرائيل [كما جاء في الحديث!]، يرفعون الناس من

---

(1) سورة الصّفّ: الآية 10.

(2) سورة البقرة: الآية 257.

حضيض الأَسر إلى سدّة الارتقاء والسموّ والتعالي (الحرّيّة)، من خلال تعليمهم الناس طرقَ التقرّب إلى الله، وإيجاد المحيط الاجتماعي الملائم، وإقامة الحكومة الإسلامية...

في مسيرة التقرب من الله والنجاة من حالات الأَسر المختلفة ونيل ما يقابلها من «الحرّيّات»، يعرج الناس من الحياة الدنيا إلى الحياة الإنسانية، ومنها إلى الحياة الطيّبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1].

نجاتُنا وإنجاءُ اللهِ لنا:

في مسيرة التقرب التي تتشكل بتغيير أحوال الإنسان على نحو خاصّ ومعين، يغيّر الإنسان المحيط بوعي منه وبعزيمة لا تلين وسعي مستمر، من خلال إضعاف العوامل المفسدة، والتخفيف من تأثيرها، أو القضاء عليها، فتظهر على أثر مساعيه أو مساعي فريق اجتماعي ناشط ظروفٌ جديدة في كلّ من المحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي والمحيط الدولي؛ وهذه المساعي تؤثّر مباشرة وغير مباشرة في حياة الناس الذين يعيشون في هذا المحيط وفي أنماط سلوكهم؛ وهكذا فإنّ نجاة الناشطين الاجتماعيين تؤدي إلى نجاة سائر الناس. وتواجهنا هنا ظاهرتان:

أ ـ النجاة.

ب ـ الإنجاء.

الأولى هي الحرّيّة التي أوجدَها الفرد (أو المجموعة) إراديًّا في المحيط لمصلحته، والثانية ظاهرة التحرّر التي ينعم بها الفرد أو

(1) سورة النحل: الآية 97.

الشعب بأقل جهد ممكن. وهنالك اختلاف في وضع وخصوصيات المعرفة المتعالية لدى الناجين من الفريق الثاني والناجين من الفريق الأول الذين خلقوا الحرّيّة في المحيط. وهنالك حالة وسطية أيضًا، بمعنى أن الفريق الثاني يطالب بالحرّيّة بتأثير من الفريق الأول، ويقوم بجهود في هذا السبيل، لكنه مَدين في انتصاره للفريق الأول. من زاوية المعرفة المتعالية لكلٍّ فرد مرتبته ومكانته في التغيير الكامل للمحيط أو في «التحوّل الثوريّ»، وتختلف هذه المرتبة والمكانة عن مرتبة الآخرين ومنزلتهم، ويصل هذا الاختلاف في المكانة من واحد إلى آخر إلى آلاف الدرجات. في النبوّات: النبيُّ هو الرائد في طريق الهداية والإيمان والصراط المستقيم، يبدأ الخطوة الكبيرة الأولى ويتبعه الآخرون، الذين يؤمنون بما جاء به فيحرّرون أنفسهم، ويجاهدون لتحرير المجتمع والأمّة...

التعابيرُ والألفاظُ القرآنية المعبّرة عن الأَسْرِ والحرّيّة:

من خلال التدقيق في مَواطن استعمال ألفاظ الحرّيّة والأسر بين الناس في الأقاليم والثقافات المختلفة نرى أن لفظة الأسر تطلَق على حالة الخضوع، وصعوبات العيش والحياة، والمعاناة، وكثرة الأعباء وغير ذلك.

القَيدِ والأسر مرادفان لصعوبة الحياة. في المقابل فإنّ لفظة الحرّيّة ـ فضلاً عن دلالتها على الخلاص والانتقال من حالة الأسر إلى حالة الحرّيّة ـ تشير إلى حالة التجرد من التعهدات المفروضة، وفقدان القيود والأغلال، وسهولة الحياة، سهولة التطور والارتقاء وغير ذلك.

من هذه الزاوية، فإنّ الله عز وجل توضيحًا لمعنيَيِ الحرّيّة والأسر استخدم تعابيرَ كقوله: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى...﴾.

إنّ لفظة «العزّة» في اللغة العربية أبلغ تعبيرًا من لفظة الحرّيّة ومرادفاتها في اللغات الأخرى، فهي بمعنى القوّة التي لا تتزعزع، والصلابة والمناعة والقدرة المطلقة. والعزيز هو القادر المقتدر ذو النفوذ الشديد الصّلب، الذي لا تستطيع العناصر المخلّة والمفسدة أن تؤثر في حياته أو في ارتقائه المعنوي أدنى تأثير. و«الأرضُ العَزاز» ما غلُظ من الأرض وأسرع سيلُ مطره، والرجل العزيز المنيع الذي لا يُغلب ولا يُقهر[1].

ومن بين سائر الألفاظ القرآنية المعبّرة عن الحرّيّة، استُخدمت لفظة العزّة صفةً من صفات الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]؛ لله العزّة المطلقة ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، ولنبيِّه العزّة الأرفع في عالم البشر، ومن ثمّ لكلّ مؤمن بحسب درجة إيمانه وخلوص نيّته، وحجم أعماله الصالحة وتنوُّعها ومداومته على فعلها، المنعةُ والعزّة في المحيطات الأربعة، وله منزلته المتناسبة معها في نظام الوجود. وعلى رأس منازل المؤمنين قاطبةً منزلةُ خاتم الأنبياء (ص)، واتّصافه بالعصمة تعبير آخر عن هذه العزّة، والحرّيّة والمنعة تجاه همزات الشياطين، وفي مواجهة العناصر المفسدة المرئية واللامرئية من الجن والإنس. ومسيرة تقرّب المؤمنين ومسيرة تقرّب النبيِّ الأكرم (ص)، هي مسيرتهم من الذّلّة إلى العزّة، ومن الأسر إلى الحرّيّة، فمعنى «عزّ الرجل يعزّ عزاً وعزة إذا قويَ بعد ذلة، وصار عزيزاً»[3]. والأعِزَّة ـ جمع عزيز ـ صفة للناس المتمتعين بحقوقهم السّياسية والمدنية، والأحرار سياسيًّا؛ والأذلّة ـ جمع

---

(1) **لسان العرب**، ج5، ص 374.

(2) سورة المنافقون: الآية 8.

(3) **لسان العرب**، ج5، ص 375.

الذليل ـ تطلق على الأفراد المحرومين من تلك الحقوق، الأسرى الخاضعين لسلطة الحكّام السياسية ولاستبدادهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، وهذا هو المعنى الذي قصده الإمام الحسين (ع) في قوله: «**ألا وإنَّ الدَّعيَّ ابنَ الدعيِّ رَكَزَ بينَ اثنتَيْن، بين السِّلَّة والذِّلَّة، هيهاتِ منّا الذّلّة...**»

وصفة العزيز بمعنى الممتنع الصّعب المنال تقابلها صفة «الذليل» بمعنى السهل المنال. وقد صوّر الله عز وجل سهولة الحصول على ثمار الجنّة باستخدام لفظة «ذَلّلت»: وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾[2].

والمؤمنون في الوقت نفسه الذي يُظهرون فيه الصلابةَ والمناعة تجاه عوامل الخلل وعناصر الفساد،ويرفضون الذلّة والمهانة، يكونون في ما بينهم وتجاه المؤمنين وتجاه آبائهم وأمهاتهم، لطفاء رحماء، أذلاء: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[3]، ويصف الله عزّ وجلّ المؤمنين الذين يحبّونه بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

وبما أن «العزيز» صفةٌ من صفات الله تعالى واسمٌ من أسمائه

---

(1) سورة النّمل: الآية 34.

(2) سورة الإنسان: الآية 14.

(3) سورة الإسراء: الآية 24.

(4) سورة المائدة: الآية 54.

الحسنى، وهو الممتنع فلا يغلبه شيء[1]، فإنّ الإنسان المؤمن حين يرتقي إراديًا وبوعي من حالتَي الأسر والذلّ إلى حالات الحرّيّة والعزّة والتعالي والتقرّب من الله، أو بتعبير أدقّ: حين يرتقي ارتقاءً معنويًا، يكون حينئذ قد تخلّق بالأخلاق الإلٰهية...

هذه الألفاظ القرآنية الجوهرية «المفاتيح»، تُستخدم لتوضيح معنى واحد، هو المتعارف عليه بعبارة «الخلاص من الأسر» وبلفظة «الحرّيّة».

التبعية:

بالنسبة إلى الإنسان ليست الذلّة والعزّة في البداية سوى تعبير عن وضع من الأوضاع المختلفة التي هي أمور خارجية ومقدّرة لا يدَ للإنسان فيها، كولادته في منطقة معتدلة الهواء غزيرة المياه، أو في منطقة صحراوية جافّة أو في منطقة جليديَّة: أوضاع متعدّدة تدلّ على الذلة والعزَّة المقدّرتَيْن في المحيط الخارجي الطبيعي، أو كولادته في بلد معين في زمن معين في مرحلة حكم استبدادي أو مرحلة حكم ثوريّ عادل: وهما أمران مقدّران وغير إراديّيْن في محيطين اجتماعيَّين متضادّين وظرفين متناقضيْن.

معنى «الذلّة» في علم المعرفة المتعالية، القِيَمي أو الديني، عبارة عن الاستسلام والخضوع للعوامل المخلّة والعناصر المفسدة في المحيط «والتبعية» لها، مقابل «العزّة» التي تعني مقاومةَ تلك العوامل والعناصر، وتعطيلها وتعطيل مفاعيلها، للوصول إلى القضاء عليها واستئصالها نهائيًا.

---

(1) لسان العرب، ج5، ص 274.

أول تلك العوامل المفسدة هم المستكبرون والمتَرفون، وهم قادرون على إذلال الناس وأسرهم من خلال تشكيل الحكومات والمجالس وإصدار القوانين التي تذل الناس وتستعبدهم، فتتحقق الذلَّة ويتحقق الأَسر من خلال «التبعية»، وقد عبّر الله عزّ وجلّ عن قبول الناس للذل باستخدام لفظة التبعية ومشتقاتها.

«التبعية» معناها طاعة العناصر المفسدة بوعي وبإرادة، وبتنفيذ أوامرهم ونواهيهم يتحقق الأَسر والذلة في وجود الإنسان، لكنْ إذا وُجدَ في مثل هذه الظروف بالوراثة أو بالصدفة، فإنه لا يُسمّى «ذليلاً» أبدًا، فالذلة لا تتحقق إلّا بالتبعية الإرادية والواعية للعناصر المفسدة، والعزّة تتحقق بمواجهة هذه العناصر. تحدث الأولى في مسيرة الابتعاد عن الله، والثانية في مسيرة التقرب منه.

ليأخذ الإنسان القرار بأن يسلك سبيل التقرب إلى الله ـ أو الإيمان التوحيدي والحياة الطيّبة ـ عليه قبل ذلك، أن يعرف الله ويتعرف صفاتِه وأسماءَه الحسنى ونظام الكون ونظام العالم الإنساني، ويعرف ما هي الأوامر والنواهي والأحكام الإلهية، أو «الشريعة»، وما هي الأوامر والنواهي أو الأحكام الطاغوتية؟ ما هو المعروف وما هو المنكر؟ وما هو تأثير طاعة الله ورسوله وتطبيق شريعته في وجوده، وما هي نتائجها بالنسبة إليه؟ وما هو تأثير تبعية إبليس والطواغيت والمستكبرين والمترفين المستبدين والكهّان الفاسدين المفسدين في وجوده، وما هي عواقبها؟

وتأتي «الطاعة»، طاعة الله أو العمل بأوامره ونواهيه حلقة ـ بعد الإيمان ـ في مسيرة التقرّب. والتسليم لله بالتسليم لدستوره (شريعته)، يضفي علينا صفة «التقوى»، ويصوننا من البعد عن الله، وينيلنا الحرّيّة والعزّة، من خلال ما نقوم به من صالح الأعمال التي تقرّبنا إليه، والمتطابقة مع درجات الحرّيّة والعزّة.

بين الحلقتين الابتدائية والأصلية في مسيرة التقرّب من الله: أيْ بين حلقة المعرفة ووعي الحقائق الأساسيّة لنظام الوجود التوحيدي، وحلقة الإيمان بها - والتي تتضمن الإيمان بالله وبالنبوّة والمعاد - هنالك حلقة وسطى تتعلق فيها إرادةُ الإنسان العاقلِ الواعي، بالحياة الطيبة والإيمان التوحيدي ومسيرة التقرب، وصولاً إلى الإيمان بالله تعالى. في هذه الحلقة الوسطى بالتحديد وقبل الإيمان وبمددٍ من الميل الفطري إلى الحق [الحنيفية]، تخلق إرادته لديه العلائقَ السامية، لينبعثَ من داخله العشق لله ولجميع المظاهر والآيات الإلٰهية. فحين تتكوّن لديه العلائق العالية الممتدّة جذورُها في «الحنيفيّة»، يذوب عشقًا لله، هذا العشق هو الذي يسرّع مسيرة تقرّبه، ويحثّه على طاعة الله و«التبعيّة» لدينه ولنور الهداية في قرآنه، واتّباع رضوانه والتمسّك بشريعته: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1]، و﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي... ﴿١٥٧﴾﴾[2]، ﴿...وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[3]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ...﴾[4] إلخ.

---

(1) سورة آل عمران: الآية 31.

(2) سورة الأعراف: الآية 157.

(3) سورة النساء: الآية 125.

(4) سورة الطور: الآية 21.

الفصل الثامن

الإنسانُ خليفة الله

في هذا المقام فقط وبهذا الاعتبار نال الإنسان من بين جميع الموجودات التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، الفخرَ في أن يكون خليفة اللهِ في الأرض، عاملاً بعمل اللهِ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وكمثل داود:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾[1]، وخليفة النبيّ هو الذي بإمكانه أن يقيم على الأرض حكومةً على نمط حكومة النبي...

إذا كان من المقرّر أن يتمتع الإنسان بالقوة التكوينية «الإرادة»، أو حرية اختيار نوع العمل ونمط الحياة، وفعل ما يحلو له من السيطرة على المحيطات الأربعة الداخلي والطبيعي والاجتماعي والدولي، فهذا معناه أيضًا قدرته على الإفساد في الفرض والفساد أيضًا، أيْ أنّ الإنسان بامتلاكه للإرادة في بنيته الفطرية يمكنه فضلاً

---

(1) سورة ص: الآية 26.

عن اختياره العملَ الصالحَ وممارسة الإصلاح، أن يقوم بطالح الأعمال والإفساد في الأرض والقتل وسفك الدماء، ويخرّب البيئة ومصادر الإنتاج: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾[1].

وفي هذا السياق تندرج معاركُ بدر وأُحد والخندق وخَيْبر وكربلاء والثورة الإسلامية وانتفاضة الأقصى، وثورة الحجارة، بحيث إنّ الناس خلفاء الله في الأرض نالوا هذا الارتقاء والقرب من الحق.

إن إصلاح المحيط الطبيعي والمحيطين الاجتماعي والدولي وإعادة تشكيلها، يتطلب الانتصار على المحيط الداخلي وإعادة تشكيل الذات وتكوين الشخصيّة لاستخدام الإمكانيات الذاتية ليتحقق الفتح المبين في المحيطات الثلاثة، من خلال تصميم مسبق وامتلاك المعايير والأحكام والقدوة والأنموذج: وهذه وسائل جهَّز الله عزّ وجلّ البشرَ بها بواسطة الوحي: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ... ۝٣١﴾[2].

وهكذا أوجدَ الله عزّ وجلّ الإنسان العاقل وعلّمه ما لم يعلم، من الكمالات والظواهر والحوادث، وحين اعترض الملائكة على

---

(1) سورة الحجّ: الآيتان 40 و41.

(2) سورة البقرة: الآيتان 30 و31.

خلقه من يفسد ويسفك الدماء (الإنسان)، سوّغ خلقه له بقابليته للعلم والمعرفة، وطلب إلى الملائكة كافة أن يسجدوا له تعظيمًا لعلمه ومعرفته، فسجدوا كلّهم لآدمَ إلّا إبليس أبى واستكبر...

لقد جعل الله عزّ وجلّ جميع الموجودات وقوى نظام الوجود المؤثِّرة في عالم الطبيعة في خدمة حريَّة الإنسان وارتقائه المعنوي وتقرّبه إلى الله، ولم يبقَ من عناصر سلبية في المحيطات الأربعة سوى إبليس الباطن [هوى النفس] الذي هو جزء من بنية الإنسان الوراثية، وإبليس الخارج [شياطين الجِنّ والإنس] الذي يتلوّنون بألوان مختلفة...

«الهوى» كمظاهر إبليس التي لا تُعدّ ولا تحصى، غير مرئي وغير محسوس، لكننا نشعر بحضوره ووجوده من خلال عمله الدائم في داخلنا وفي داخل الآخرين. وهو محرّك مرتبط بالحرص والشُّحّ والرغبة في امتلاك الأشياء واقتنائها، وفي الشهرة والمقام الاجتماعي والسلطة، وهذه «الرغبة الدنيئة» هي التي توجد سلطة التملّك والسيطرة على وسائل الإنتاج والسلع والناس والكرة الأرضية وحتى الكواكب.

أبالسة الخارج هم إخوان الشياطين وأقرانُهم الذين يُضلّون البشر:

﴿... إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾... وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ...﴾[1].

أفعال العناصر المخلّة والمفسدة:

لا يظنّنّ أحدٌ أنّ الشيطان الذي يخوّفنا من الفقر، ويزيّن لنا سوء

---

(1) سورة الأعراف: الآيات 27 ـ 29.

العمل هو دائمًا غيرُ مرئيٍّ وغيرُ محسوس. أحيانًا هو ذلك الكاهن والدرويش والصّوفي المشعوذ، الذي يتباهى بالفقر ويدّعي الزهد، وذلك المعادي للعلوم الطبيعية والتقانة، ويريد أن يظل الإنسان عبدًا للطبيعة وأسيرًا لها، وليس كما أراده الله «كريمًا» وحرًّا وعزيزًا وقادرًا. هو ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ الظاهر والمتخفي من الناس المستكبرين والمترَفين والكهّان وسلاطين الإعلام، والطواغيت والمستبدّين من السياسيين الذين تتعارض أحكامهم وأوامرهم ونواهيهم مع أحكام الله وأوامره ونواهيه، هؤلاء ذريّة إبليس الذي أقسم أن يغرّر بذرية آدم: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾.

إنهم ذرِّيته الثقافية والمعنوية وليس البيولوجية؛ الطاغوت والكهّان والمستكبرون والمتموّلون مصّاصو الدماء، وسلاطين الإعلام وفلاسفة الضلال.. وما أكثر الناس الذين ارتضّوا بنِير هؤلاء في أعناقهم، طيلة التاريخ، واتَّخذوهم أولياءَ من دون الله... وطيلة التاريخ سعى الأنبياء والأحرار من الصالحين، لهداية الناس الأَسرى، الفقراء، الأذلّاء، المظلومين، المستضعفين، وإيقاظهم وتوعيتهم، ليحيَوْا حياةً طيّبة، فاهتدى بعضهم وآمنوا وقاوموا الطاغوت والكهّان، لكنّ عددًا كبيرًا أيضًا، لم يستجيبوا، ولم يعملوا للارتقاء من العيش إلى الحياة الإنسانية ومنها إلى الحياة الطيّبة... المؤمنون الأحرار طبّقوا الأحكام الإلٰهية، وسرّعوا مسيرةَ تقرُّبِهم، وإحراز الدرجات العالية في نظام الوجود، وساعدوا المستضعَفين الأسرى الأذلّاء وشملوهم برحمتهم وعفوهم وأمروا بالعُرف وأعرضوا عن الجاهلين.

الفصل التاسع

الأفعالُ ورُدود الأفعال تقرُّبًا إلى الله عزّ وجلّ

إنّ أول ردّ فعل قام به الأنبياء والمؤمنون لمواجهة المستكبرين والمستبدين والطواغيت والعناصر المفسدة الأخرى في المحيطين الاجتماعي والدولي، كان استشعار الخطر الذي يشكّله هؤلاء، لتأتي ردود أفعالهم اللاحقة واعيةً إرادية، متوازنة ومدروسة ومعدّة. أما ثاني ردود الفعل فالإدراك العميق لاستفحال المخاطر واستمراريتها، والتأكد من عجزهم عن صدّها بقدراتهم الذاتية بدون الاستعاذة بالله وطلب العون منه، معتمدين ومتوكلين على الإمكانات العظيمة والواسعة والمستمرّة لنظام الوجود، يستخدمونها في سبيل مقاومة العناصر المفسدة في المحيط، لتتحقق غاية السجود الذي قام به الملائكة لآدم (نوع البشر)، وتثمر الاستفادة والاستعانة.

من ردود الفعل الأخرى التي أمر بها الله عزّ وجلّ النبيَّ والناس: **الصّبر**، أيْ مقاومة المستكبرين والمستبدين والمتسلّطين، وسائر عناصر الفساد الاجتماعية والدولية: الصبرُ النابعُ من أملهم بتحقق وعدِ اللهِ ويقينهم بالانتصار النهائي. ردّ الفعل اللاحق ـ الذي

هو أمر آخر من أوامر لله ـ هو «**الاستغفار**» أيْ أن يطلب الإنسان إلى الله عزّ وجلّ أن يغفر له ما تقدَّم من ذنوبه وما تأخر منها، لتحرير نفسه من الداخل [في المحيط الداخلي]، ولتحريرها في المحيطيْن الاجتماعي والدولي، والارتقاء من خلال تسبيح الخالق بكرةً وعشيًّا. و«**الاستعاذة**» بالله السميع البصير، للقضاء على سلطة المستكبرين المستبدين لإقامة الحكم الإلٰهي، ليصبح المحيطان الاجتماعي والدولي أكثرَ ملاءمة لحياة الناس وارتقائهم المعنوي وتقرُّبِهم، وتصبح الطاعة لله لا للطاغوت.

من ثمار القضاء على الطاغوت والمستبدّين ومكتسباته وإقامة حكومة التوحيد، وتحقيق الثورة الاجتماعية: أن يغفر الله للناس ما تقدَّم من ذنوبهم، وأن يؤخرهم إلى أجل مسمّى؛ لقد كان هذا وعد نوحٍ لقومه[1]، وهذا ما وعد به الأنبياءُ جميعًا[2] أتباعَهم: الحياة، والارتقاء المعنوي في سبيل التقرب؛ وهما الأمران اللذان كانا باستمرار في معرض تهديد العناصر والعوامل المخلّة والمفسدة المرئية واللامرئية في المحيطات الأربعة.

هذه الحصانة تتضاعف بالنسبة نفسها التي يزداد فيها إيمان الشخص وتقواه، وتتزايد حجمًا وتنوعًا وزمانًا، كلما ازداد حجم أعماله الصالحة وتنوُّعها وقوتها؛ وكلما ارتقت الحصانة درجةً، كلما ارتقى الإنسانُ درجة في مراتب التقرّب: الإيمان بالله والجهاد بالأموال وبالأنفس، يؤدي إلى الغفران وتاليًا إلى الجنة، وهذا هو الفَلَاح والفوز العظيم[3].

---

(1) سورة نوح: الآيات 1، 4.

(2) سورة إبراهيم: الآية 12.

(3) سورة الصّفّ: الآيات 11، 13.

لِذا في الدرجات العليا من مسيرة التقرب يطلب الإنسان الغفران من الله، حين يعترف بأنه ظلم نفسَه كما فعل موسى الكليم قُبَيْل بعثته فغفر له الرحمٰن. وكما فعل آدمُ وحوّاء حين استغفرا الله على ما ارتكباه من ذنب؛ لكنّ الوصول إلى منازل القرب، والتحرر من شِباك الهوى والانفعالات وهمزات الشياطين، لن ينجيَ الإنسان من خطر الفساد الذي تسبّبه العوامل والعناصر المخلّة والمفسدة في المحيطَين الاجتماعي والدّولي، ومن بينها المستكبرون والمحتلّون والمستعمرون والمترفون، إلّا بشرطين: إقامة الدولة التوحيدية؛ دولة العدل، ووصول تلك الدولة إلى القوة الوطنية الرادعة بحيث لا يفكّر المستعمرون بمهاجمتها، وإن فكّروا لا يستطيعون احتلال أرضها وإذلال شعبها.. كما حدث بعد صلح الحدَيبية واعتراف مُشركي مكّة رسميًّا بالدولة الإسلامية وهذا ما سمّاه القرآن «الفتح المبين»...

إنّ الفرق الأساسي والقِيَمي بين الأفراد والجماعات يكمن في موقفهم ورؤيتهم لأمرَي الحياة والارتقاء المعنوي، وبردود أفعالهم تجاه العوامل والعناصر المخلّة والمفسدة المرئية واللامرئية؛ بحيث إنّ الناس في المنزلة الحيوانية الدنيا، لا يهتمون إلّا بأمر معاشهم، ولا يولون الارتقاء المعنوي أيَّ اهتمام، والأدنى من هؤلاء درجةً هم الذين لا يهتمون بأمر المعاش، ولا يدافعون حتى عن أرواحهم وأموالهم؛ أما الإنسان السليم، الأرقى منزلةً، فهو الذي يعمل فضلاً عن دفاعه عن روحه وبيته ووطنه، على صون حريته وكرامته، ومحاربة العوامل المخلّة والمعتدية، و«الحرّيّة» هي الصفة التي تطلَق على من يتمتع بهذا الإحساس، والميل إلى الدفاع والنضال..

أما المستكبرون والمترَفون وهم العناصر الرئيسية في إفساد الحياة والارتقاء المعنوي، فبامتلاكهم للتقانة الحديثة والأسلحة المدمّرة، وإسرافهم في نهب المصادر الطبيعية وتخريب البيئة،

يعرّضون البشرية والكرة الأرضية لخطر التخريب والزوال. المستكبرون يُعرفون من خلال سلوكهم الانفعالي المتمثل بالحسد وبسياسات الفساد الأخرى: يسعَون قي الأرض ليفسدوا فيها وليُهلكوا الحَرثَ والنسل؛ والمترَفون أولئك المسرِفون، قبيلة الشيطان، المستعمرون القدماء والجدد.

والأرفع منزلة من «الأحرار» سليمي القلب (معظم الفتيان والشباب)، هم المؤمنون الذين تكون ردودُ أفعالهم شديدةً تجاه أيّ خطر يستهدف شخصياتهم وكراماتهم، ويفسد حياتهم وارتقاءهم المعنوي، الرحماء في ما بينهم والأشداء على الكفار والمنافقين... مصاديق الحديث النبوي: **«مَنْ أصبحَ ولم يهتمَّ بأمورِ المسلمين فليسَ بمسلمٍ»**، وحديث: **«مَنْ رَأى منكُم المنكَرَ فليغيّره بيدِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبِلسانِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِهِ، وذَلك أضعَفُ الإيمانِ»**.

يمكن أن نلخّص أفعال التقرّب والتصدّي للعوامل المخلّة أيِ الأعمال الصالحة على النحو التالي:

1 ـ الدعوة إلى الخير.

2 ـ الاستعاذة.

3 ـ الاهتمام بأمور المسلمين.

4 ـ الاستعانة.

5 ـ الاستغفار.

6 ـ الصبر والمقاومة.

7 ـ التربية على النفور منها.

8 ـ لعنتها.

9 ـ القضاء عليها.

10ـ الثورة وإقامة الدولة الإسلامية العادلة.

1) الدعوة إلى الخير:

إن أول ردّ فعل تجاه المستكبرين والمترفين هو الدعوة إلى الخير، دعوة عامة الناس الغافلين المظلومين والمستضعفين والجهلاء، أو المضلّلين والضّالين الذين لا يميّزون الحسنة من السيئة، ولا يعرفون ماهيّة «الخير» والفضائل والارتقاء المعنوي، العاجزين عن تشخيص مصاديقها.

الدعوة إلى الخير مؤداها طرح قضية الحرّيّة والارتقاء المعنوي، وتعريف الناس بهما، لإنجائهم من السلطة والأصُر والأغلال، وما يفرضه الطاغوت والسياسات الاستعمارية، يرى المستضعفون بأمهات عيونهم أن الذين يدعونهم من الأنبياء والرسل والقادة، لا يسعَوْن إلى السلطة والثروة والجاه، والحلول محلّ المستكبرين والمترفين. حتى أنهم لا يقصدون منذ البداية القضاء على قارون وهامان وفرعون والطغاة، لكنهم يريدون أن يجعلوهم عادلين وصالحين، وهدفهم الوحيد هداية البشرية وارتقاؤها المعنوي: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾[1]، أو كما أمر الله عزّ وجلّ خاتم الأنبياء (ص): ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾[2].

هذه أولى ردات الفعل في مواجهة الحملات الثقافية المفسدة للمشركين وللطواغيت: أسلوبُ القول الليّن اللطيف، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨﴾[3].

---

(1) سورة طه: الآيتان 43، 44.

(2) سورة المؤمنون: الآيات 96، 98.

(3) سورة آل عمران: الآية . 104.

2) الاستعاذة:

المصدر «العَوْذ» بمعنى المحافظة على الذات، والخلاص من أذى العوامل المخلّة والمفسدة في المحيط، من خلال الالتجاء والاحتماء بشخص أو جماعة أو بالله تعالى، فالاستعاذة نوع من الاستمداد الدفاعي، تجاه العوامل المخلة والمفسدة في المحيط الداخلي، أي تجاه «الوسوسة»، والإيحاءات، وتسويغ الباطل، و«تزيين» الأعمال والعقائد السيئة وتصوير الشّرورِ حسناتٍ، والأشرار صالحين، وإلقاء الشبهات، وأنواع الخداع الأخرى، أو ما سمّي في الكلام الإلٰهي «همزات الشياطين»: الشياطين غير المرئيين، والشياطين المرئيين من المستكبرين والمترَفين والمشركين والمنافقين والمجرمين الكَفَرة، الذين يتشاركون جميعًا بصفة الإجرام والفساد والإفساد.

لقد أمر الله عزّ وجلّ رسوله الأكرم في سورة الفلق أن يعوذ به، من شر كلّ ذي شرّ من مخلوقاته، وخصّ بالذكر:

1 - شرّ الليل أو ما يحدث فيه من سوء، كنايةً عن الغفلة والجهل والضلال.

2 - ومن شر النفاثّات في العقد؛ أيْ كل مظاهر الشعوذة والنفاق وانحلال الروابط المحكمة والعلاقات المفيدة.

3 - ومن شرّ حاسد إذا حسد، ومن سوء مقاصده وأقواله وأفعاله، فالحسد من أمهات الكثير من الرذائل كالحقد واللؤم والكذب والغيبة والنميمة والمكر والخداع.

وفي سورة «الناس» خاطب الله عزّ وجلّ النبيَّ وبواسطته الناس، أن يستعيذوا بالله من شرّ وساوس الشياطين من الجنَّة [وسوسة هوى النفس]، والناس: الموسوِسون في الخارج: الأعمال العدائية،

والإعدام والمَجازر التي يرتكبها المستكبرون، والاستعاذة بالله من الانحطاط والابتعاد عن الله والجهل: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾[1]، لاتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية اللازمة.

والاستعاذة بالله من خيانةِ من أحسنَ إلينا[2]، والعياذ بالله من هوى الأنفس: يقول أمير المؤمنين: «**إنّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم اثنان اتّباعُ الهَوى وطولُ الأمل**»[3]. وفي وصفه لأحبِّ الناس إليه يقول: « **قد ألزَمَ نفسَه العدلَ، فكان أوّلَ عدلِه نفيُ الهَوى عن نفسِه**».

3) الاهتمامُ بأمور المسلمين والمستضعَفين والبشرية جمعاء:

«الاهتمام» عبارة عن الاستعداد لإدراك أمر من الأمور وفهمه والتركيز عليه ذهنيًّا، أو فهمِ حادثة من الحوادث أو موضوع من الموضوعات، أو وضعٍ من الأوضاع. «والاهتمام» أمر إرادي واختياري. فالاهتمام بالعوامل المخلّة والمفسدة التي يتعرض لها المجتمع، يجعلنا نفهمها فهمًا أفضلَ وأوضح، لنبحثْ بشكل جماعي عن وسيلةٍ للتصدي لها. ولذا فإن الاهتمام بأمور المسلمين، وبما يتعرض له المستضعفون في العالم وبالأحداث العالمية، من شروط الإيمان والتقوى والتقرُّب والتحرّر واستحقاق لقب خلافةِ الله في الأرض. . .

الاهتمام الذي يؤدي إلى اتخاذ المواقف والتدابير التي تدور حول تعيين الأوضاع المحيطة، ووضع تصوّرٍ لمستقبل الأفراد والأمّة.

---

(1) سورة البقرة: الآية 67.

(2) سورة يوسف: الآية 23.

(3) **نهج البلاغة**، ج1، ص 101.

4) الاستعانة:

طلب العون من الله عزّ وجلّ للقضاء على العوامل والعناصر المفسدة في المحيطَيْن: الداخلي والخارجي، مكمّلٌ لمقاومتنا لها، ومتممّ للاستعاذة، أيِ الوعي بالمخاطر، والاستعانة بالله للقضاء عليها، و«**إنَّ مِن أحبِّ عبادِ اللهِ إليه عبدًا أعانَهُ اللهُ على نفسِه**»[1].

5) الاستغفار:

الإرادة من الله والطلب إليه.

أولاً: الوسائل، والإمكانات، والقوة، والفوز، والهداية، والمدد، وكلّ ما يمكن أن يحمَينا من أذى الأعداء، ومن الآثار السيّئة للعوامل والعناصر المفسدة الذاتية والخارجية.

ثانيًا: إمكانية النجاح في السيطرة على الميول الدنيّة في وجودنا، التي يوجدها تركُ عمل الخير وارتكاب الأعمال المحرّمة والقبيحة. وهو أيضًا النجاح في إنجاز الأعمال الصّالحة، أيِ الخيرات والحسنات التي قمنا بها بإرادتنا وبكامل وعينا، والتي لها ميزة محوِ الطبقات الدنيّة من وجودنا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2].

إرادة معرفة الدين، والسعي لفهم دروس القرآن والحديث، واكتساب المعارف التوحيدية، ليمحوَ نورُها ظلماتِ الجهل من أذهاننا، ويحيينا حياةً طيبة، أيْ يجعلنا نعرُج من الحياة الإنسانية إلى الحياة الإيمانية: «**أوَ مَن كان ميتًا (فاقدَ الحياةِ الطيّبة)، فأحيَيْناه،**

---

(1) **نهج البلاغة**، ج1، ص 165.

(2) المصدر نفسه.

وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كَمَن مَثَلُه في الظُّلُماتِ ليس بخارجٍ منها»[1]؟!

صحيح أن محوَ «السيئات» ـ الطبقات الدنيا في وجودنا ـ يتم بواسطة «الحسنات» وبوعينا وإرادتنا، إلّا أنه كغيره من الحوادث متعلّق بالله عزّ وجلّ، الذي هو مسبّب الأسباب وقمّة الولاية والشفاعة التكوينية العليا. لذلك يقول في مكان آخر، تأكيدًا على هذه الحقيقة الجليلة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾[2].

بناء على ذلك فإنّ ما يتضمنه الاستغفار من عمل صالح ورفعة وسموّ يبدأ بالتفكير والإرادة والطلب، ومن ثمّ بالدعاء ـ الاستغفار باللسان ـ المقترن بسلسلة من الأعمال الصالحة، التي تشكل الصّراط المستقيم، والقرب من الله، ويُختتم باستجابة ذلك الدعاء، الذي هو تحقُّق تلك الإرادة وذلك الطلب، والتغيرات المحيطية ومسيرة ارتقائنا وتعالينا، وهذا هو معنى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

بناء على ذلك، فإنّ الاستغفار هو الدّعاء في ساحة الحرب، والدعاء في ميدان الثورة، والدعاء في ساحة النضال من أجل التحرير، وخاصّ بالذين يتمتعون بالتقوى السياسيّة والتقوى الثقافية: الحذر من البعد عن الله المرادف لمعنى الأَسر والذلّ، الحذر من الخضوع لسلطة الطاغوت والاستكبار والمحتلّين الأجانب، ومختصّ بالرجال والنساء الذين ساروا في طريق الحرّيّة والعزّة والكرامة والاستقلال الوطني، وسلكوا سبيل التقرّب إلى الله في ساحات النضال والثورة وإسقاط الطاغوت، والاستبداد، وإقامة دولة الحقّ والعدل، والدفاع المقدّس عنها. يعلمون من همُ الأعداء الذين تجمَعُ

---

(1) سورة الأنعام: الآية 122.

(2) سورة الفرقان: الآية 70.

بينهم لفظة «إبليس»[1]، ينفرون منهم ويَحْذَرونهم، يفكّرون في التحصّن من الفجور السياسي والثقافي للأعداء، وهم في كامل الجهوزيّة السياسية ـ والعسكرية، منشغلون بالنضال والثورة أو الدفاع المقدّس. لا علاقة لهذا النوع من الاستغفار العملي بالاستغفار اللفظي الباطل للشخص الإمّعة. فهذا النوع الأخير ليس إلا كذبٌ محض[2].

أصل هذه الكلمة «الغَفْر»، التغطية والستر، غفر الله ذنوبه أيْ سترها، ومنه قيل للزرد يُنسج من الدروع على قدر الرأس، ويلبس تحت بيضة الحديد: «مِغْفَرٌ»[3] ويقول الراغب الأصفهاني: «الغَفر إلباس ما يصونه عن الدّنس... يقال: اغفر ثوبك في الوعاء، واصبغ ثوبك فإنّه أغفرُ للوسخ... والاستغفار طلب الحمايةُ من الله عزّ وجلّ بالقول والعمل: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾، أن تطلب ذلك بلسانك وتسعى إليه بعملك أيضًا. لهذا قيل: إنّ الاستغفار باللسان بدون السعي والجهد العمليّيْن هو عمل المنافقين؛ وهذا هو معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾[4].

6) الصبر أو المقاومة:

الصبر، مقاومة للعوامل والعناصر المخلّة والمفسدة في المحيط ولآثارها السيئة: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[5]، للخلاص من «الأصر والأغلال» والارتقاء من حالات الأسر إلى

---

(1) انظر: **الميزان في تفسير القرآن**، ج15، ص51.

(2) بحسب قول الراغب الأصفهاني، عالِم القرآن في القرن الخامس الهجري.

(3) **لسان العرب**، ج5، ص 25.

(4) **المفردات في غريب القرآن**، ص 362.

(5) سورة البقرة: الآية 177.

حالة الحرّيّة والسعادة، وإرساء قواعد الثورة السياسية والثورة الاجتماعية، يجب التصدي لعناصر الخلل والفساد ومقاومتها بشدة، ولهذا السبب أمر الله عزّ وجلّ النبيّ الأكرم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]، كما أمر المؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة لمقاومة العوامل المخلّة والمفسدة لأن الله مع الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنّا لله وإنّا إليه لراجعون...

إن مساعدة الله والإمداد الغيبي لا يتأتيّان بدون «الصّبر» أيِ المقاومة، وبدون العبادات والأعمال الصّالحة مثل الصلاة؛ لأن هذه الحياة، هي ميدان التجربة: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[2].

إن الصّبرَ والحِلمَ الذي يعدُّ شكلاً من أشكال الصبر هما من مستلزمات التقرب، مقترِنَيْن بالأعمال الصالحة. وهما رؤيتان أو أسلوبان في مواجهة الحوادث المؤذية مثل المرض والسيول والزلازل وغيرها من الحوادث والمخاطر، وكذلك عوامل الخلل وعناصر الفساد الاجتماعية والدولية؛ فالمؤمن يعمل على تنظيم المتناقضات في ذاته، أيْ تنظيم الغم والفرح، الخوف والغضب، الصداقة والعداوة، لتتشكل لديه تاليًا فضيلتا الصّبر والحلم كرؤيتيْن متّبَعَتين: ﴿...ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3].

قَرَن الإيمان بالعمل الصّالح، وقدّم عليهما الصَّبر في مواجهة

---

(1) سورة الأحقاف: الآية 35.

(2) سورة البقرة: الآيتان 155، 156.

(3) سورة القصص: الآية 80.

المصائب بجميع مظاهرها وتجلّياتها. والحلم شكلٌ من أشكال الصّبر، نقابل به الحركات الدنيئة للعناصر الفاسدة، ويُسمى صاحبُ هذه الرؤية «حليمًا»، وهذه إحدى صفات الله عزّ وجلّ[1]، والأنبياء[2]، والحِلم لا يعني دفع شرّ الظالمين والمعتدين والجهلاء، ولكن بمعنى عدم القيام بردّ فعل انفعالي في غير مكانه، وغير ذي فائدة: أرقى أنواع الحلم، موقف يعقوب من فعلة أبنائه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾[3].

7) تنمية الغضب والنفور في القلب:

في مسيرة التقرّب إلى الله ترتقي شخصية الإنسان من عدّة زوايا وفي الأبعاد المختلفة أفقيًا وعموديًا: الانفتاح العقلي، اتساع مصادر التعلمّ، اتساع مفهوم الهُويّة، سعة الصدر والمشاعر، تخطي حدود الزمان والمكان، ارتقاء السلوك، الحضور في قلوب الآخرين وأذهانهم، ازدياد الاحترام للذات، وارتقاء صورته عن نفسه. من الأعمال الصالحة التي تشارك في هذه القضية، تنمية الغضب والنفور في القلب تجاه العناصر المفسدة والمذلة، بحيث إنّ الإنسان يرتفع من حضيض الأنانية، إلى المحبّة الخالصة للخالق وللمخلوق، والغضب الشديد والمستعِر تجاه المستكبرين والظالمين. مثل هؤلاء الرجال والنساء تتبلور شخصياتهم في مسيرة تقرّبهم من الناحية العاطفيّة ـ الانفعاليّة، فتسمو ميولُهم عن متطلبات الجسد، وتسمو محبّةً ورحمةً لجميع المؤمنين والصالحين، ومحبّةً رحمانيّةً

---

(1) سورة البقرة: الآيات 225، 235، 236؛ سورة آل عمران: الآية 155؛ سورة النساء: الآية 12؛ سورة المائدة: الآية 100.

(2) سورة التوبة: الآية 114؛ سورة هود: الآية 75.

(3) سورة يوسف: الآية 18.

للمستضعفين والمحرومين والمأسورين، لتشمل ما في الكون جميعًا. كما أن غضبهم من الظلم وكرههم له يخترق الحدود الجغرافية والعرقية والسياسية، ويذهب بعيدًا في عمق التاريخ كذلك، محبةً لفئة وعداوةً لفئة أخرى، محبة وعداوةً تخيّمان بظلالهما على البشرية جمعاء دون أيِّ استثناء، وكلما ازدادت عظمة شخصياتهم ورفعتها، كلما ازدادت جاذبيتهم ودوافعهم. ليسوا محايدين، وليسوا بلا أصدقاء وأعداء، وعلى العكس منهم تمامًا، على الضّفة الأخرى في النقطة المقابلة أولئك الأدنى من الأنعام، الأسرى الأذلّاء، الذين لا يعادون ولا يقاومون، ولا أحد يعاديهم، هؤلاء هم الذين لا موقف لهم، والذين يوصَفون بعبارة: [إنهم لا في العير ولا في النفير] أو «الإمّعات».

8) اللَّعن، الحربُ الكلامية، إطلاقُ الشعارات:

حين نتعرف العوامل المخلّة والمفسدة، ونفكّر فيها، ونهتمّ بالأمور الاجتماعية والدوليّة، ونستشعر الأخطار، ونتخذ مواقفَ دفاعية، ونتحلى بالمقاومة والصّبر، ونستعيذ ونستعين بالله لمحاربتها، ونستعدّ عاطفيًّا وانفعاليًّا، فننمّي غضبَنا منها وكرهَنا لها، ونركّز على تجاوز الحالة الفردية والاستعداد الذاتي، لننضمّ إلى بعضنا، ونعمل معًا لمواجهة العوامل المخلّة والعناصر المفسدة في الساحتين الاجتماعية والدوليّة، وتكون نتيجةَ العمل الجماعي حدثٌ ثوريٌّ يقلِب الموازين.

بعد ذلك ينخرطِ كلُّ فرد من الأفراد بعمل معين، ومن أبسط الأفعال وأكثرها بدائية فعل القول: التعبير عن المشاعر الداخلية والطموحات والآمال، ومن بينها الشعار الذي يستهدف العواملَ المخلّة والمفسدة في المحيط: لعنُ الشيطان الذي هو العدوّ المعروف للناس، لعنُ الظالمين والمستبدين والمستكبرين والمترفين:

شياطين الإنس، وأصولهم وفصولهم، الأحياء منهم والأموات، من يزيدَ إلى الشاه وإلى أميركا وإسرائيل...

فالغضب والسخط الذي ينمو في دواخلنا، ويتراكم، يتفجرّ صرخاتَ وشعارات ضدّ العدو ومراكز الخطر والعدوان والفساد والإفساد.

بعد هذه النقطة في مسيرة تقرّبنا، نخطو خطوةً خارج محيطنا الداخلي، لنبدأ بتغيير المحيطَيْن الاجتماعي والدولي.

9) مقارعةُ المستكبرين والمترَفين، والقضاء على الطاغوت، وقيام الثورة:

أنا في مسيرة التقرب أخرج من سجن العلاقة بالأمور والأشياء والظواهر الطبيعية والمعيشية، لأدخل في مدار الأنبياء والصالحين والثوريين. أنضمّ إلى عالمهم وأحلّق في فضائه. وأسمى من ذلك أدركُ تموضعي في محضر الله، .وأعِي حقيقة أن الله والملائكة وعباد الله الصالحين يرونني ويراقبونني. فلا أعود ذلك الشخص الذي ينظر إليهم أو يفكر فيهم أو يدرك وجودهم فقط، بل أكثر من ذلك أنا تحت أنظارهم، وفي معرِض مقاضاتهم: «قُلِ اعملوا فسيرى الله عملَكم ورسولُه والمؤمنون». فأشعر بالخجل والحياء، حياءً يدل على إيماني[1]؛ فيضاف بعدٌ جديدٌ إلى أبعاد حياتي ووجودي... الله السميع العليم «اللطيف» ـ الذي ينفُذ إلى أعماق وجود أيّ إنسان وأيّ شيء ـ «الخبير» العليم، يعرفني ويعرف مرتبتي في نظام الوجود أفضل مني، ويعرفها بدرجة أدنى نبيُّه الأكرم، والمؤمنون كلٌّ بحسب تجربته في مسيرة التقرب والكرامة والسموّ في نظام الوجود.

(1) يقول الرسول الأكرم: «لا دِينَ لمن لا حَياءَ له».

لكنْ من أنا بالنسبة إلى الآخرين؟ بالنسبة إلى الأنعام من الناس أو الأدنى من الأنعام ـ الأشبه بالسلع والأشياء ـ المتموّلين، المستكبِرين الذين لا يعلمون عني شيئًا. أنا غائب عن وعيهم كموضوع معرفي. أنا بالنسبة إليهم شيء كبقية الأشياء المحيطة بهم، والتي يُخضعونها لتجاربهم، وبالنسبة إليهم كمتمولين قيمتي تعادل ثمني في الأسواق، وكمستكبرين ينظرون إليَّ بحسب قابليتي للإذلال والأذى والقمع...

أنا في المقابل أنظر إليهم كمخرّبين للحياة ومفسدين للارتقاء المعنوي، أيْ أنظر إليهم كأعداء. من هنا يبدأ صراعي معهم، ومحاربتهم لي.

إن مسيرتنا في مقاومة المستكبرين المستبدّين والمحتلين الغاشمين المترفين المستعمرين، والطواغيت، وفي نضالنا ضدّهم وصراعنا معهم، تعجّل إسقاطهم وقيام الثورة، وتزيد من درجات تَقَرُّبنا إلى الحق...

في هذا المقام نعي أننا نظّمنا عواطفنا وأفكارنا وأعمالنا ونضالنا بحسب أوامر الخالق ونواهيه، واقتدَيْنا في حياتنا بتعاليم القرآن والمعارف الدينية؛ وأصبحنا على النحو الذي أمرَنا به الله عزّ وجلّ، نقتدي بالرسول الذي «كان خلقُه القرآن»، نتخلّق بأخلاق القرآن، الأخلاق الإلٰهية أو القرب منه والتقرب إليه.

وكلما قارنّا أنفسنا بالأشخاص الذين لا همّ لهم ولا يفكرون ولا يعملون سوى لإشباع ميولهم وحاجاتهم الحياتية، ندرك عظمة مقامنا في نظام الوجود، ونعي معنى خلافة الإنسان لله في الأرض؛ نكون قد جرّبنا خلافة الله، تجربةً أعمق وأسمى من الشهود. والآخرون أيضًا ما لم يكونوا كافرين يعترفون أنّ وجودنا على عكس وجودهم أرحبُ وأوضح. جميعنا نعترف أن المعلمَ المتفاني والأستاذَ

الخيّرَ يبقى حيًّا في وجدان تلامذته، والطبيبَ الإنساني في وجود المرضى الذين شفاهم، والجنديَّ المضحّي الشجاع أو شهيد الدفاع المقدس يبقى حيًّا في وجود الأمن والاستقلال والحرّيّة لأمّته ووطنه. إنّ القلوب المُحِبّة الخيّرة والعقول السليمة، والذين رأوا أو سمعوا أو قرأوا عن أعمال الخير والخدمات الإنسانية، والنضالات التحريرية والبطولات، في قلوبهم وعقولهم مكانةٌ لهذه الشخصيات المتعالية والمقرّبة، يعتزّون بالأحياء منهم ويحترمونهم ويقدّرونهم ويفتخرون بهم، ويجلّون ذكرى الأموات منهم.

إن حضورهم المعزّز والمكرّم في أذهان الناس الذين يعرفون الحقّ وأهله، وفي قلوبهم، معلولٌ لتأثيرهم في الحياة وفي الواقع الاجتماعي والواقع الدولي، وهم بما فعلوه من خير، وباهتمامهم بأمور المسلمين وسائر المستضعفين، ومن خلال جهادهم من أجل الرجال والنساء والأطفال المظلومين، ومن خلال نضالهم وثورتهم على الطاغوت والطواغيت، استحقّوا هذا الحضور الفاعل والجدّي في الواقع الاجتماعي وفي الساحة الدوليّة. حاربوا مع الله الذي اقتضَت إرادته دحرَ المستكبرين وإعزازَ المستضعَفين، عاهدوا الله واستُشهدوا في سبيله، وهذه قمة الإيمان، يقول أمير المؤمنين علي (ع): «من كمال السعادة السّعي في إصلاح الجمهور»[1]، ويؤيد هذه الحقيقة حديث رسول الله (ص): «**مَنْ رَأىَ منكم المُنكَرَ فليغيّرْه بيدِه، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه فذَلكَ أضعفُ الإيمان**».

(1) غُرر الحكم، ص 722.

الفصل العاشر

العالم الإنساني المنبسط المستقلّ

الإنسان ـ في مقامه فردًا ـ منظومة من الأحداث والأعمال، وهو بعد موته وبداية حياته البرزخية على هذا النحو من الوجود. لكن بما أنّ له بدنًا هو جزء من العالم الطبيعي، يحتاج إلى الطعام والشراب والهضم... إلخ، فنحن ندركه وندرك أنفسنا أيضًا كشيء؛ ومعظم إدراكنا على هذا النحو.

إن وجودنا هو في الحقيقة فعلُ الله تعالى، وجودٌ منبعه من العالم العُلوي، وظهَرَ في العالمين الطبيعي والإنساني. والأهمّ من ذلك أن كلّ ما يَعْبُر نظامَ الوجود بكل ما فيه من عوالم بطبقاتها الوجودية «فعل الله تعالى. ابتداؤها منه وقوامها به وانتهاؤها وعودتها إليه»، «إنّ خلقَ جميع العالم فعلُ الحق تعالى وكلها مخلوقة بالحق لا بالباطل». ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[1].

---

(1) سورة ص: الآيات 26 ـ 29.

ما هو موجود وهو حقٌّ أيضًا، إمكانيةُ المسارَين المتعارضين: التقرّب إلى الله والبعد عنه. وجود العالم الإنساني نقطة مركزية متجهة نحو العوالم العليا ونحو العوالم الدنيا والطبيعية؛ وجود الإنسان المستقل؛ وجود الإمكانات والقدرات المتفاوتة والمتضادة فيه كمخلوق مستقلّ، بإمكانه السيطرة على محيطه الداخلي وعلى المحيط الطبيعي والمحيط الاجتماعي والمحيط الدولي. كما أن بإمكانه أن يكون أسيرَ العوامل المخلّة والمفسدة في المحيطات الأربعة - التي تشكّل طبقات الوجود الدنيا -، الخيار له. لكنّ مصيره والآثار المترتبة على خياراته ليست بيدِه. فمبدأ الوجود، وناظم الوجود ومدبّره قد عيّن حدود قدرته وقدّرها تقديرًا.

العالَمُ الوسَطي بين السماوات (العالم العلوي) والأرض (العالم الطبيعي):

العالم الإنساني هو عالم يقع في نظام الوجود ونفس الأمر بين العالم العلوي - السماوات - وبين العالم الطبيعي - الأرض -، وهذا ما يوضحه قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ... ﴿٢٧﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[2].

اللعب عملٌ مقرّرٌ ضمن قواعد لا تصل إلى نتيجة معقولة ومقبولة، وإذا كان له من نتيجة، فإنها تلائم الإنسان أو الموجود الذي تشغل بالَه. وليس المحرك الداخلي لمثل هذه الأعمال سوى مَيل ومحرك دنيٍّ. واللعب كأيّ سلوك أو فعل آخر يجب أن يكون

(1) سورة ص: الآية 27.

(2) سورة الأنبياء: الآية 16.

ناجمًا عن حاجة أو نقص أو محرك في ذات الفاعل: «... لاتخذناه من لدنّا»، والعلائق الدنيّة والحاجة بالنسبة إلى ذات الله تعالى محالَةٌ، والقول بها باطل: لذلك فإنّ فعل الباري تعالى هو قذفُ الحقّ على الباطل فيدمغُه فإذا هو زاهق.

هذه الصراعات والحوادث تجري في العالم الإنساني، وليس في العالم العلوي (السماوات) أو في العالم الطبيعي (الأرض). فالباطل هو المعارف والفلسفات والنظريات التي تسوّغ وتزيّن سلطة الجبّارين وسياساتهم الظالمة، وهو المتمولون آكلو الأموال الحرام ومصّاصو الدماء، المتّبعون للشهوات، المترفون، والكهّان القدماء والجدد ومحتلّو بلاد الآخرين بأسلحة الدمار الشامل، وغير هؤلاء من «المفسدين في الأرض»... هؤلاء وأقرانهم غير المرئيين الذين يفسدون الحياة والارتقاء المعنوي للبشرية، يعتمدون فضلاً عن سائر الأساليب العدوانية والهجومية، أسلوبَ الاجتياح الثقافي ـ السياسي وتزيين الباطل من خلال «وسائل الإعلام». فيحدث حينئذ الصراع والمعارك بين فريقَي البشر: بين القوى الإنسانية المتعالية المجهّزة بالمعارف الحقّة والسنّة التوحيدية ـ الوحيانية، وبين تلك المجموعات الاجتماعية والدوليَّة المجهّزة بالسّنَّة الإلحادية ـ الطاغوتية أي «الباطل». فقوى الحق وقوى الباطل في صراع دائم... والإرادة الإلٰهيّة تمدّ قوى الحق بالقوة فتزهق قوى الباطل إلى جهنّم وبئس المصير.

تدرّجُ خلقِ الإنسان، وتكوينُه طبقةً فطبقةً:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾[1].

(1) سورة الإنسان: الآية 1.

المراد بالإنسان في هذه الآية الشريفة الجنس البشري، والاستفهام للتأكيد أنّ مرحلةً طويلة من التاريخ الطبيعي قد انقضَت قبل أن ينوجد موجودٌ باسم «الإنسان». الذي خُلق من صلصال من طين، ثم تطوَّر من حال إلى حال ومن طَور إلى طور آخر، ثم أهديَ السبيلَ أو النجدَين، وأُعطيَ الإرادة ليختار طريق الارتقاء المعنوي أو طريق الحياة الدنيا الدنيّة. . .

مَلَكَات الإنسان التكوينية وقدراته عبارة عن:

1 ـ مَلَكَة الاستقلال، أو الإرادة والذات الإنسانية الأصلية = ذات الصدور.

2 ـ الجزء الطبيعي أو البدن والحاجات العضوية.

3 ـ مَلَكَة القدرة على عمل الخير والشر في أمور العالم الطبيعي والنعم الإلٰهية وفي المحيطات الأربعة.

4 ـ مَلَكَة المحافظة على الذات وصَوْنها، أو المحركات الانفعالية ـ العاطفية والدفاعية.

5 ـ مَلَكَة وعي «الذات» والإحساس بالشخصية.

6 ـ مَلَكَة المَدارك الحسّيّة، والذكاء.

7 ـ القدرة على التعبير عن الأفكار، والإدراك الحسّي، والمعارف، والتجارب، والاستدلال، والنظريات والمعتقدات؛ والقدرة على الكلام والحوار وتبادل الآراء والتبادل الثقافي.

8 ـ العقل، وإعمال المعرفة بمبدإ الوجود وطبقاته، وبالضرورة معرفة الخير والشر.

9 ـ الذاكرة أو تخزين المعلومات وتذكّرها.

10ـ الميل الفطري إلى الحق: الحنيفية.

11ـ هوى النفس والحرص والشّحّ وغريزة التملّك.

12ـ القدرة على إيجاد القدرات المختلفة والمتضادة في ذاته.

بنية الإنسان ثابتة طيلة التاريخ وعلى وسع الأقاليم الجغرافيّة وتعدّدها، ولا تتغير: ﴿...ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾(1).

1 ـ مَلَكة الاستقلال أو الإرادة:

هذه المَلَكة التي هي «ذات» الإنسان الأصلية، وُصفت في الكلام الإلٰهي بـ «ذات الصدور»...

إنّ تعلمَ أو عدمَ تعلمِ أو فهمِ دروس الإيمان وسبيل التقرّب والحرّيّة والثورة أمران إراديان. كذلك فإنّ الإيمان أو الكفر بتلك المعارف والدروس إراديَّان أيضًا، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾، و﴿...فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾. و﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾... «فذات الصدور» أو الإرادة هي القدرة على إيجاد الميول المختلفة والمتضادّة الثابتة نسبيًّا في ذواتنا، والقدرة على اختيار نمط الحياة ونوع السلوك من بين أنماط الحياة وأنواع السلوك المتفاوتة والمختلفة. حتى القدرة على التوبة أو تغيير مسار الحياة من الحياة الدنيا الدنية إلى الحياة السامية، والقدرة على استبدال الخير بالشر: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦﴾(2).

---

(1) سورة الروم: الآية 30.

(2) سورة الشورى: الآيات 24 ـ 26.

2 ـ الجزءُ الطبيعيُّ أو البدَن:

بهذا الجزء نتعرف وجودَنا. ركائز وأدوات في خدمة إرادتنا واستقلالنا وسائر أجزاء وجودنا: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾، أشار في البداية إلى الجزء الطبيعي أو البدن: العينان إشارة إلى القدرة على الإدراكات الحسيّة، و«اللسان» قدرة التعبير عن الفكر والنيَّة والمعتقدات والنظريّات وأمثال ذلك. و«الشفتان» كناية عن القدرة على الكلام والحوار وتبادل الآراء والمعارف .﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾، إشارة إلى العقل وإعمال المعرفة بجميع طبقات الوجود، أيْ معرفة الخير والشر.

3 ـ مَلَكةُ فعل الخير والشرّ في أمور العالَم الطبيعي وفي المحيط الرباعيّ الأبعاد:

إنّ سيطرتنا كبشرٍ على عناصر الطبيعة (الماء والتراب والهواء والغابات والثروات المعدنيّة وغيرها) وحتى على أجسادنا أمرٌ واقعي لا شكّ فيه، ولا شكّ كذلك أنّ بإمكاننا أن نحسن أو نسيء التصرف فيها، وهذا الأمر له في سُنَّة الوحي التوحيدية حسابٌ وكتابٌ وثوابٌ وعقابٌ، وليس كذلك في سنَّة الطاغوت الإلحادية. إن مَلَكَة التصرف في موجودات العالم الطبيعي، إنما هي الأمانة التي حمّلها الله عزّ وجلّ للبشر من خلال آدم، وطلب إليهم مراعاة الأحكام المتعلقة بها، ونهاهم عن إساءة استخدامها أو تخريبها واستنزافها، وحرّم تحريمًا مطلقًا قتلَ النفس: قتل الآخر وقتل الذات (الانتحار)... والناس بالنسبة إلى موقفهم من المصادر الطبيعية وطريقة الاستفادة منها فريقان:

1 ـ الرجال والنساء الظالمون، الجهلاء، المسرفون، المشركون، المنافقون.

2 ـ المؤمنون والمؤمنات الذين شملتهم رحمةُ الله الغفور الرحيم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[1].

إن مَلَكة التصرف في المحيط الطبيعي خيرًا أو شرًّا جزءٌ من تكوين الإنسان وبنيتِه، مرتبطٌ ارتباطاً وثيقًا بقدرات أخرى تكوينية لديه وبخاصة قدراته العقلية والحسّيّة...

وقد تمكّن الإنسان مستخدمًا ذكاءه أن يطوّر من طرق استفادته من مصادر الطبيعة وعناصرها، وصولاً إلى التقانة وتاليًا الأدوات والوسائل التي أتاحت وتتيح له السيطرة على قوى الطبيعة الأخرى تعميرًا للأرض أو تخريبًا لها وإفسادًا فيها.

إن حسن التصرف في استخدام التقانة في المحيط الطبيعي، حرّر الإنسان من ربقة أسر الطبيعة، ورفعه في نظام الوجود إلى مرتبة «الكرامة» إحدى النعم التي أنعم الله بها على البشر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2]. وفي هذا السياق يقول الإمام زين العابدين (ع): **«الحمدُ لله الذي اختارُ لنا محاسِنَ الخَلق، وأجرى علينا طيّبات الرّزق، وجعل لنا فضيلة بالمَلكة على جميع الخَلق. فكُلّ خليقةٍ منقادةٌ لنا بقدرتهِ، وصائرةٌ إلى طاعتنا بعزّته»**[3].

---

(1) سورة الأحزاب: الآية 72، 73.

(2) سورة الإسراء: الآية 70.

(3) **الصحيفة السجّادية**، في حمد الله ومدحه، ص 26.

4 ـ محرّك صَوْن الذات:

هذه المَلَكة محرّك فطريّ، يتولى المحافظة على بقاء الإنسان، ويتشكل من نوعين من الميول، يعملان معًا لتأمين بقائنا:

أ ـ الميول والرغبات العضويَّة، النابعة من حالة البدن الفيزيائية والكيميائية.

ب ـ الميول الانفعالية ـ الشعورية، أو الدفاعية، تتصدى للعوامل المخلّة والمفسدة للحياة وللارتقاء المعنوي الموجودة في داخل الإنسان وفي المحيط الخارجي بأبعاده الطبيعية والاجتماعية والدولية، فتثير في وجودنا ردودَ أفعال قصيرة المدى أو طويلة المدى، وحالاتٍ انفعالية أهمّها الخوف والنفور والحذر والغضب...

5 ـ ملَكَة الوعي بـ «وجود الذات» والإحساس بالشخصية:

من بين جميع المخلوقات، وحدَه الإنسان، يملك الوعيَ بوجوده الذاتي، ويعرف قدراتِه واستعداداتِه الإيجابيةَ، وحدودَه الوجودية. يعي إمكاناته واستعداداته، كما يعي وجود إرادة مستقلة لديه، أي مَلَكة الاستقلالية في وجوده: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾[1].

إنّ الوعي بالذات والإحساس بالشخصية المستقلّة أمران متلازمان، يخلط البعض بينهما وبين الوعي بالأحوال الداخلية (الشعور بالألم أو الحزن...)، على الرغم من الاختلاف الشديد بينهما، فوعيُ الإنسان بأحواله الداخلية له منحًى ذهنيّ تشكّله التجارب التي يمر بها الإنسان: من خلال هذا الوعي يفصل ذاته عن

---

(1) سورة القيامة: الآية 14، 15.

تجربته الداخلية (تجربة الألم مثلاً)، ليستطيع أن يصدر حكمًا بشأنها، وهذا أمرٌ مختلف عن «الوعي بالذات»، ويبدأ كما يرى علماء النفس منذ مرحلة الطفولة الأولى.

الجانب الشكلاني للوعي بالذات هو الوعي بـ «الأنا»، أما مضمونه فأكثر أهمية وأشدّ تعقيدًا، وفي علم النفس ـ الاجتماعي أن الوعي بالذات لا يُؤوّل كالوعي بالأحوال الداخلية من خلال أنموذج مبسّط، فهو يخلق شيئًا، ولديه أفعال وردود أفعال، ويعمل بناء لآليّة عمل.

6 ـ مَلَكة الإدراك الحسّيّ، والذكاء:

لدى الإنسان أفعال لا يحتاج إلى آلات لتحقيقها كالأكل والشرب والتنفس والمشي، ولديه أفعال يحتاج تحقيقُها إلى أدوات وآلات: استخدم ذكاءه لصنعها فتوصَّل إلى ما يسمى بـ «التقانة»، التي ترتكز على أسس العمل المبنيّ على الفهم والحساب، الناجمَيْن عن إدراك حجم الإمكانات المتوافرة، والنتائج المرجوّة، لتحسين نمط العيش النابع من الرغبات الخاصة المرتبطة بالحياة الدنيا ـ الحيوانية، ومن «الاهتمام» الانتقائي، وإدراك الأمر المرغوب قبل أيّ شيء آخر، وفوق أيّ شيء آخر، أيْ ما يستحوذ على الاهتمام وتكون الاستجابة له لا إرادية، أو ردّة فعل... في حين أن الاهتمام الإرادي يحدث حين ينصبُّ البحثُ على شيء ما نسعى وراء تحقيقه...

7 ـ مَلَكةُ التعبير عن الأفكار والمعارف والتجارب والنظريات والمعتقدات؛ والحوار والتفاعل الثقافيّيْن:

الواقع هو أننا كبشَرٍ نعمل على نحو اجتماعي، نؤثِّر ونتأثر بالعوامل الاجتماعية وبتفكير الآخرين ومعتقداتهم وأفعالهم. وهم

كذلك يتجاوبون معنا، كأعضاء في مجتمعنا محاورين وأصدقاء وزملاء... نحن وهُم في حوار دائم، وفي تبادل مستمرّ لوجُهات النظر والآراء والعواطف والمعتقدات، وفي تفاعل ثقافي وحضاريّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[1].

8 ـ العقل:

مَلَكةٌ في وجودنا وبُنيتنا التكوينية، متنوعة الأداء، مترابطة الأعمال. عملها المعرفة بمبدأ الوجود بجميع درجاته وطبقاته وعناصره، وتاليًا معرفة الحُسن والقُبح [الحُسن والقبح العقليين]، والخير والشر، ومعنى الحياة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾[2].

إننا ببركة هذه الهِبَة الإلهية، نستطيع التمييز بين الأشخاص المختلفين وبين الأشياء المتنوعة، وفوق ذلك نحن قادرون على وضع تصوّر للعالم وللبشرية، وعلى السيطرة على غرائزنا وحواسّنا، وعلى إدراك عمق الأشياء وكُنهِ الأمور التي هي عالم الموجودات العُلويّة.

إنّ العقل فضلاً عن كونه محركًا فطريًا لدينا يدفعنا لطلب الحق، يحرّضنا ويساعدنا كذلك على الارتقاء وعدم القناعة بالحياة الدنيّة، وعلى التفكير في نظام الوجود والمبدأ والمعاد، للتوصل إلى وضع تصوّر للكون بمعناه الواسع الشامل، والتصدي لحلّ المسائل والمشاكل والمعضلات وكشف الأسرار؛ إن وجود العقل لدينا هو أحد عناصر القوّة المحرّكة للتاريخ والصّانعة له، وهو علّة تكامله، وسبب خلق عالم أفضل وأسمى لأنفسنا.

---

(1) سورة العصر: الآية 1، 3.

(2) سورة الشمس: الآية 7، 8.

العمل الآخر للعقل هو أنه يمكّننا من تعرّف طبقات وجودنا وعناصره من أقصاها إلى أدناها، ومن أعلى عليّين إلى أسفل السافلين. وهو أحد وجوه تميّزنا من الملائكة وتفوّقنا عليهم. فالملائكة علمُهم بما يحدث في العالم مُستَمدّ من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ [العالم العلوي]، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، لم يكن الملائكة حين أخبرهم الله عزّ وجلّ بجعل آدم خليفةً يعلمون شيئًا عن «ملَكة الإيمان والعمل الصالح الإرادي» التي أوجدها الله عزّ وجلّ في «ذات» الإنسان، ونفخنا فيه من روحنا، بدون واسطة الملائكة، مباشرة في الإنسان المؤمن الصالح، ليعثرَ على الحياة الطيّبة التي تدنيه من ربّ العزّة. كان الملائكة قبل جعل الإنسان خليفَةً يعلمون طبقات العالم العلوي ـ وهم منه ـ العالم الطبيعي بسماواته وأرَضيه وعناصره المادية، كانوا يعرفون النار، وعناصر الأفلاك والموجودات المخفيّة عن حواسّ البشر «الجان»، التي خُلقت بأمر الله قبل خلق آدم والعالم الإنساني، كانوا يعلمون بوجود شياطين الجنّ وليس شياطين الإنس [البشر]، لأن الله عزّ وجلّ لم يكن قد «سوّاهم» بعد: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[2]. ولهذا السبب ما كانوا يعلمون أنّ لدى الإنسان في تكوينه الفطري هذه الاستقلالية ـ أو الإرادة والاختيار ـ التي يمكنه الحصول عليها بمساعدة العقل وسائر مكوّنات وجوده: ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، ليصعدوا باتجاه الحيّ القيوم...

(1) سورة الأعلى: الآيتان 2 و3.

(2) سورة الانفطار: الآيات 6 ـ 8.

بعد تسوية آدم (الإنسان) وتعيين تقديره وهدايته أيْ مَلَكة العقل، والملكات التكوينية العشر الأخرى، اعترف الملائكة بمحدودية علمهم نسبةً إلى طبقات الوجود أو «الأسماء»، واعترفوا بعلم آدم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٣١﴾. قالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ... ۝٣٣﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾[1]... حين أظهر آدم علمه بكل «الأسماء». جُهِّز فضلاً عن العقل بسائر المعارف الحقّة، أو علم العالم الإنساني وحيًا، فبدأ بالتفكر في «الكتاب الإلٰهي»، والتأمل في آيات الآفاق والأنفس ليؤمنَ ويقومَ بصالح الأعمال، فنفخ الله فيه من روحه نفخةً هي روح الحياة الطيبة التي تصعد به نحو مبدأ الوجود المطلق الجمال والجلال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[2]. نعم بإمكان الإنسان إن راعى هذه الشروط في مطالعة القرآن المجيد، إنْ عَمِلَ صالحًا واستعاذ بالله من وساوس الفلاسفة الملحدين، والكهان القدماء وكهّان الحداثة، أو أدعياء العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية المترفون، أن ينال السموَّ ومعرفةَ العالم الإنساني التوحيدي.

بناء على ذلك، فإنّ وجود العقل في تركيبتنا الوراثية، لا يوصلنا وحده إلى خلافة الله في الأرض، وإنما هو شرط واحدٌ فقط من

---

(1) سورة البقرة: الآية 31، 33.

(2) سورة النحل: الآية 97.

شروط هذه المنزلة، لأن العقل وحده يمكن أن يوجِدَ لدى الإنسان الطبقات الدنيّة في وجوده، ويجعل منه دنيويًا ـ مترفًا، محتلاً، مستعمِرًا، مستغِلاً، متسلِطاً، مرابيًا... أو مستكبرًا فاسدًا مفسدًا، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ...﴾[1]؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾[2]؛ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[3].

الإنسان ليس من جنس الملائكة، وإنما هو خليفة الله في الأرض ليحكم فيها بالعدل والقسط: أي بمقدار خدمته لمجتمعه والبشرية الحاضرة والأجيال القادمة، بإقامة التوازن بين الحقوق والواجبات أيْ بينَ ما لَهُ وما عليه. هنا يصبح البشر خلفاء الله قوّامين بالقسط شهداء لله، أو قوامين لله شهداء بالقسط، أيّا كان الموقع أو المنصب أو العمل... ﴿...وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾[4]؛ ﴿...وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ... ﴿١٥٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[5].

إن خلافة الله في الأرض منزلةٌ نحصّلها بمساعدة ملكاتنا

---

(1) سورة يونس: الآيات 13 ـ 15.

(2) سورة فاطر: الآية 39.

(3) سورة ص: الآية 26.

(4) سورة المائدة: الآية 42.

(5) سورة الأنعام: الآيتان 152 و153.

التكوينية، التي فطرنا الله عليها وعلى رأسها «الاستقلالية والحرّيّة» التي هي نفسنا الأصلية وذاتنا الأصلية...

لكنّ أولئك الآثمين المعتدين آكلي السُّحت، الذين يسعَون في الأرض فسادًا، فقد لُعنوا بما قالوا، وهم الذين قال عنهم الملائكة: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، كأنّ من مستلزمات خلافة الناس لله في الأرض، أن يكون بعضُهم مفسدين فيها، قاتلين ومستعمرين ومغتصبين للحقوق وضالّين ومضلّين... ليكونَ هنالك صراع بين الحق والباطل، ولتنبثقَ الثوراتُ الشاملة عن موجود أرفع من الملائكة يكون خليفة لله في الأرض.

9 ـ الذاكرة:

مَلَكة أخرى من مَلَكات الوجود الإنساني، تقوم بعملَين هما الاكتساب والتذكّر، لا متناهية السّعة، هي التي تُعلي مقامنا وترفعنا فوق سائر المخلوقات. وكما يقول علي (ع): «**كلُّ وعاءٍ يَضِيقُ بما جُعِلَ فيه إلّا وِعاءُ العِلْمِ فإنَّه يَتَّسِعُ**»[1]...

إن الذاكرة تشكل عنصرًا من عناصر تفوّق الإنسان على سائر المخلوقات.. إننا كبشر نملك ذاكرةً تاريخية، تمكّننا أن نتذكّر الماضي، وأن نجسّد المستقبل مستعينين بصور الماضي وبمساعدة الخيال. وعلى أساس هذه القدرة نضع المشاريع والبرامج لمستقبلنا ولمصيرنا الإرادي ـ لا المقدّر ـ فنحن كبشر مزودون بالقدرة على التخطيط والتدبير والتوقّع...

10ـ الحنيفية = [المَيلُ إلى الحقّ]:

محرّك آخر في بيتنا يصِفُه الله تعالى بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

---

(1) نهج البلاغة، ج3، ص183.

﴿حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1].

إنّ الظواهر المعروفة كأعمال الإحسان والإيثار والتضحية والتعاطف والرحمة والمشاركة الوجدانية والاستعداد للتطور والارتقاء والسموّ والكمال والتعالي قائمةٌ بحسب المفهوم الإسلامي على محرّك الحنيفية الفطري؛ فلو لم يكن هذا الميل بنيويًا لدى الإنسان، لَمَا بَدَر عنه أيُّ تصرف من هذه التصرفات، ولما وُجد في العالم الاستعداد للسموّ والتعالي والكمال. فالحنيفية ميلٌ فطري - وليس مكتسبًا بواسطة الإرادة - إلى الكمال والفضائل والأعمال الصالحة، وإلى الصالحين والمؤمنين، وإلى الدين والأنبياء والمسجد والمعبد، وهي التي تخلق القدرة على تحقّق صفات الكمال والجلال الإلٰهية في الذات، أو أنها تبعثها وتتمّمها وتكمّلها. لو لم تكن هذه المَلكة موجودة في تكويننا، لمَا أمرَنا الله عزّ وجلّ، أن نقيمَ وجوهنا للدين حُنفاءَ لعبادته وتنفيذ أحكامه وأوامره ونواهيه والاستقامة على الصراط المستقيم تقربًا إلى الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾[2].

إن تاريخ البشر من عهد آدمَ إلى عهد خاتم الأنبياء وحتى اليوم مليءٌ بالنماذج الساطعة التي تجسّد الإيمان والصلاح والخير والعدالة والإيثار والتعاطف مع المظلومين، ومقاومة المستكبرين؛ ارتقت البشرية وترتقي بهم بصورة مستمرّة ارتقاءً لا يشبه «التطوّر والارتقاء» الطبيعي كما وصفه علماء الطبيعة في نظرياتهم، وإنما هو ارتقاء من فعل الإنسان نفسه وبمساعدته، وهو بوعيه كاملاً وبملء إرادته، وبسعيه ومجاهدته في التجربة والامتحان الإلٰهيّين:

---

(1) سورة الروم: الآية 30.

(2) سورة التكوير: الآيتان 27 و28.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾[1].

إنّ الحنيفيةَ جزءٌ من وجودنا وتكويننا، غير مادية وغير طبيعية، وغير محسوسة لأنها لا تُرى ولا تُلمس ولا توزن، ولا تُدرك إلّا بالعقل؛ إلّا أن تجلّياتها ومظاهرها أوضح من أيّ موجود مألوف وأحبّ من أيّ جمالٍ معهود. لأنها آياتٌ لمبدإ الجمال والجلال؛ إنها ما يكنّه القلب من ميل وتعلّق شديدَين إلى كلّ ما هو كمال وارتقاء وسموّ وفضيلة؛ إنها ما نشعر به من محبّة للنساء والرجال الصالحين الرحماء، العالِمين، المجاهدين، وما نكنّه لهم من احترام سرًّا وعلانية، وما نعبّر عنه بلساننا من حمدٍ لهم وتمجيد. إنها رغبتُنا باكتساب القِيَم ونشر القيم، وتصنيف الأمور والظواهر والأشخاص والحالات والصفات والخصائص. إنها تعلّقنا بالحياة السامية ونفورُنا من الحياة الدنيّة. إنها بحثُ الناس عن معنىً لحياتهم، من خلال ما أكد عليه الوحي، الذي أُنزل لتنمية هذا المعنى وتعزيزه. إنها حبُّ العلم والمعرفة، حبّ الجمال ـ الذي تجسّده الفنون ـ حبّ الضياء، والدفء، والامتلاء المعنوي والمجد، حبّ الحرّيّة والعزة، حبُّ البقاء والخلود، والأمل بمستقبل أفضل، والتخطيط ووضع التصوّرات لذلك، والسّعي الدؤوب لتحقيقه؛ إنّ ذلك كلّه من تجليّات هذه المَلَكة غير المرئية من وجودنا. كلّنا في لحظة من لحظات حياتنا مررنا بتجربة خضعنا فيها لتأثير الحنيفيّة، فامتلأتِ قلوبُنا رحمةً

(1) سورة المؤمنون: الآيات 57 ـ 61.

للمحرومين المظلومين واللاجئين والأَسرى والشهداء في سبيل الحقّ والحرّيّة، واشتعلت غضبًا على الظالمين والمعتدين.

الحنيفية هي وراء هذا القلق وعدم الرضى عن الذات، الذي يحثّنا على التنقيب والبحث عن الحلول والوسائل. ومن خلال البحث والتنقيب تنبثق فلسفة الحياة الطيّبة التي تثمر الحرّيّة والعزّة، والاستقلال الوطنيّ والكرامة. الثورة الاجتماعية الشاملة مركّبة من الحنيفية والتعقّل والارتقاء إلى معرفة الحياة الطيّبة والإيمان بها، والكفر بالطاغوت والاستعمار والاستكبار، والإيمان بالله والطاعة لأوامره، وعصيان السلطات المستبدّة المنحرفة، والتمرّد عليها لإسقاطها.

من خلال الحنيفية والتفكّر يتفتَّح الوعي بالمبدإ المتعالي للوجود برعمًا يجعلنا نؤمن بأنَّ الوعيَ بالله وبالخير والشرّ والحُسن والقبح موجود في فطرتنا، كما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[1]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[2]، وأشار إلى آدم بقوله: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[3]...

إنّ الوعي بالخير والشرّ في الأعمال والحيوات والأفكار والعواطف والانفعالات، وأنواع البشر، هو ميزة وقدرة تكوينية شديدة الأهميّة، وهي الموضوع الذي عالجَته الأديان وفلسفة الأخلاق، والفلسفة السياسية وفلسفة الحقوق والقانون... فلو أنّ

---

(1) سورة الأعراف: الآية 172.

(2) سورة الأعلى: الآيتان 2، 3.

(3) سورة البلد: الآية 10.

الإنسان لا يملك القدرة على تمييز الخير من الشر والحلال من الحرام، والمستحبّ من غير المستحبّ، لمَا استطاع أن يفهم الأوامر والنواهيَ والأحكام ويطبّقها في تصرفاته وحياته، وهذا ما أشار إليه الله عزّ وجلّ في تحذيره لآدم وحوّاء من الاقتراب من الشجرة كي لا يصبحوا وذريَّتهم ظالمين، وفي قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1].

المشهود والملاحظ في كلّ زمان ومكان ودائمًا وأبدًا، أنّ الأصحّاء من الناس يغضبون حين يشعرون بالظلم والتمييز والاعتداء على أرواح الآخرين وأموالهم ونواميسهم وكراماتهم، ويتصدون للدفاع عنهم. وإذا ما سمعوا بمصيبة حلّت بالآخرين هَبُّوا لنجدتهم؛ وإذا قرأوا أو سمعوا قصَّة الشهداء الذين خلّدهم التاريخ، بكَوا من أجلهم وتعاطفوا معهم وتمنّوا لو كانوا أحياء في زمانهم ليهبّوا لنجدتهم؛ وهذا يُثبت أنّ الإنسان فطريًّا يعي الخيرَ من الشرّ، وأنّه حنيفيّ بالفطرة.

11ـ الهوى:

محرك فطريّ في تكويننا يدفعنا إلى الحرص والجشع والتملّك وكنز الأموال: رغبة لا تشبع ولا ترتوي بالأشياء والأزواج والبضائع والقطائع والذهب والفضّة والعائلة والأولاد . . .إلخ. وقد عبَّر القرآن عن ذلك بألفاظ: «الحرص» و«الهلع»[2] و«الشحّ»[3] و«الهوى»[4]. وليُعرّفنا الله عزّ وجلّ به ويحذّرنا من اتّباعه، ذكر لنا الظروف

---

(1) سورة الشمس: الآيتان 7 و8.

(2) سورة المعارج: الآية 19.

(3) سورة النساء: الآية 128.

(4) سورة الحشر: الآية 9؛ سورة التغابن: الآية 16.

الطبيعية والاجتماعية الخاصّة، التي لا حاجة فيها إلى الطعام واللباس والمسكن، والتي لا وجود فيها للعدو والمنافس لنا على هذه النعم.

وفي الوقت نفسه دلّ آدمَ وحوّاءَ على الثمرة المحرّم أكلُها، والمؤدّي بهم إلى الانحطاط والهبوط.

12ـ القدرة على إيجاد المَلَكات الوجودية المختلفة والمتضادّة في «الذات»:

يبدو من النظرة الأولى أنّ هذه الطبقة التكوينية ليست سوى حرية الاختيار أو الإرادة. لكننا بعد التأمّل الكافي ندرك أن عمل حرّيّة الخيار أعمّ من هذه المقدرة، التي يمكنها فضلاً عن إيجاد الرغبات الدنيّة والعالية بنفسها، أن تبحث عن المعرفة وأن تتصدى لحلّ المعضلات أو أن تتغاضى عن حلّها، وأن تؤمن بما تتوصل إلى معرفته أو تنكرَه وتكفرَ به وتتجاهله وتتناساه؛ أن تزيد من معارفها أو تكتفيَ بالقليل منها؛ أن تغيّر معتقداتها وتستبدل ما تؤمن به وتكفر بما كانت تؤمن به، أو تعود إلى الإيمان به مجددًا. أما الاختيار فهو إنجاز أو عدم إنجاز الأعمال المختلفة والمتضادّة التي تؤثّر في انبعاث الرغبات الدنيّة أو السامية في ذاتها، وليس ارتكاب الأخطاء الصغيرة أو تركها بدون وعي أو بسبب الغفلة. هذا الاختيار أو عدمه ليس مَلَكةً تكوينية وهذا ما تعبّر عنه الآية 136 من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾﴾، والآية 32 من سورة النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ

يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾؛ وللتّذكير بهذا الاستعداد الفِطري أقسم الله عزّ وجلّ أولاً بتسوية النفس البشرية ثم بموجدها وخالقها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[1]. يتوصل الإنسان بهذا الاستعداد ـ بمشاركة جميع استعداداته الأخرى ومجموعة نظام الوجود ـ إلى الارتقاء المعنوي وسلوك سبيل التقرب إلى الله، فيكون الفَلَاح من نصيبه. إن تسوية نفس الإنسان معناها أنّ الله سبحانه خلق فيها الاستعداد التام لعمل الخير والشرّ معًا، ثم نهاه عن الشر وأمره بالخير، فمن اختار الخير على الشر وطهّر نفسه من رجس الآثام فهو الفائز الرابح، ومن اختار الشرَّ على الخير، ودنّس نفسه بالذنوب والآثام فهو الخائب الخاسر. فالفلاح هو سبيل التقرب إلى الله أو الحياة الطيبة والإيمان ـ بمفهوم الوحي ـ ومن دسّى نفسه وتنزّل بها إلى الحياة الحيوانية المحضة، واتّبع السُّبل التي تبعده عن سبيل الله وصراطه المستقيم أو الأعمال الصالحة فهو الخاسر الخائب.

---

(1) سورة الشمس: الآيات 7 ـ 10.

الفصل الحادي عشر

سبيل التقرّب إلى الله

إنّ سبيل التقرّب إلى الله ارتقاءٌ يبدأ بتذكّر سنّة الوحي التوحيدية، ولا يكون ذلك إلّا لدى الإنسان الحيّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾[1]، الذي يخشى ربّه ﴿...لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾[2]، والذي يميز بين سبيل الارتقاء المعنوي والسبل الأخرى التي تبعده عن الله. ويعرف ما هي العوامل المخلّة بالحياة والمفسدة لها، التي تعيق الفلاح والفوز، ويعلم أنّ الطاغوت في المحيط الاجتماعي وفي المحيط الدولي هو العائق الأكبر في سبيل الحياة والفلاح. يعي أسره وذلّه فيسلك أحد النجدين: بإمكانه أن يبقى تحت رحمة الطاغوت خاضعًا لأحكامه وقوانينه الوضعيّة فيبقى أسيرًا ذليلاً، كما أن بإمكانه أن يكفر بالطاغوت ومشروعيته، فلا يخضع لقوانينه، أو يتمرد ويثور

(1) سورة يس: الآية 69 ـ 70.

(2) سورة طه: الآية 44.

عليه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1]، العروة الوثقى التي تتضمن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، للذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقّ وتواصَوا بالصّبر؛ وعلى رأس الأعمال الصالحة وسبيل التقرّب الصلاة والدعاء، أيِ العبادة. وللعبادة أثران: أوّلهما الأثر المعرفي: وهو التفكّر بأسماء الله الحسنى ورحمته الواسعة وعزّته وجلالُه وعلمه المطلق الذي لا يُحدّ ولا يعتوره نقص أو خلل... والأثرُ الثاني ارتقاءُ الميول، وهو أساس جميع الأفكار والمشاعر والانفعالات والمواقف السياسية والاجتماعية.

في هذه الحركة من تزكية النفس تنبعث في ذواتنا الميول السامية، وفي أثناء هذه الحركة نُخفي ميولنا الدنيّة، ونقمع «أهواء النفس» ونلجم التأثير السلبي للأشياء والبشر والأمور الخارجية، فنسمو عن مستوى الغرائز العضويّة إلى مُثُلٍ موافقة لمحبة الله وإرضائه. نرضى برضاه، ونعمل في سبيله: نساعد مستضعَفي العالم مادّيًا وثقافيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا، ليتخلصوا من أسر الذلّ السياسي والاقتصادي والثقافي، ليحكموا أنفسَهم، ويسيطروا على مقدّراتهم، ويشكلوا على الأرض قوةً وطنيةً يَحذَرُ منها ويخشاها فرعون وهامان وجنودُهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾[2].

هؤلاء هم الذين يخاطبهم الله عزّ وجلّ حين تنتهي حياتهم الدنيا

(1) سورة البقرة: الآية 256.

(2) سورة الحجّ: الآية 41.

بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.
وكما أمّن الله عزّ وجلّ أرزاق البشر وحياتهم المادية، أمّن لهم كذلك أرزاقهم وحياتهم المعنوية: وذلك بالعمل الصالح المبني على التوكّل على الله وفعل الخير: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1]، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خيرُ البريّة، أمّا نقيضهم فهم ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ الذين لا يعقلون.

إن الأعمال الصالحة في حال المداومة عليها، تخلق لدى الإنسان حرية الخيار والإرادة، لاختيار الحسنات التي تُذهب السيّئات، لأن الذين اجترحوا السيئاتِ واكتسبوها، ليسوا كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، في الدنيا ولا في الآخرة[2].

حين يتلاشى وجود الإنسان المادي ويضمحلّ بالموت، تبقى نفسه وتبقى أعماله الصالحة معه في حياته البرزخية إلى يوم القيامة... وهذا هو معنى ما يتركه من أثر في وجودنا، وعاقبتُنا ما يفعله من خيرات ومبرّات أبناؤنا أو تلاميذنا ومريدونا أو أتباعنا الذين يترحّمون علينا: ﴿...وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾[3]، ﴿...وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿...وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾[5]، ﴿...وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾[6]،

(1) سورة فاطر: الآية 10.
(2) سورة الجاثية: الآية 21.
(3) سورة البقرة: الآية 215.
(4) سورة البقرة: الآية 184.
(5) سورة البقرة: الآية 272.
(6) سورة البقرة: الآية 110.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[1]، و﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[2].

الميزان:

إنّ وجود «الكتاب» أو القرآن، ووجود «الميزان» إلى جانبه هما عامِلا الهداية، وتعليم المعارف الحقّة، ودرس الحياة الطيّبة وأنموذجها المثالي في المحيطَيْن الاجتماعي والدولي... كما أن الملأ الأعلى والملائكة بتأثيرهم التكويني على العالَمين الإنساني والطبيعي، يعملون في خدمة البشرية في سبيل التقرب إلى الله. لذلك كان التوازن ضروريًّا بينهم وبين «إبليس» الذي يزيّن الباطل، ويضلّ الإنسان عن سبيل الله، تجربةً للإنسان وامتحانًا له .﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3]. ذكر المفسرون أن الميزان هو رسول الله، والأدقّ أن يقال: إن مصداقَ الآية الأنبياءُ والمعصومون من آل بيت النبيّ، ويأتي بعدهم بدرجات الفقهاء المشهورون بالصفات المذكورة في الحديث الشريف، الموجودون في كلّ عصر ومصر.

سِمَة الأنبياء أن ما يعلّمونه من وحيٍ للناس يطبقونه عمليًّا في حياتهم، فالمسيح رسول لله وكلمته، وخاتم الأنبياء «كان خلقه القرآن»، أرسله الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران: الآية 30.

(2) سورة الزلزلة: الآيات 6 ـ 8.

(3) سورة الحديد: الآية 25.

(4) سورة الأحزاب: الآيتان 45 ـ 46.

كون وجود الأنبياء وحياتهم الطيّبة ميزانًا ومعادلاً للـ «كتاب» في التأثير في الناس وهدايتهم وتيسير ارتقائهم المعنوي، يقتضي أن يكونوا معصومين لسببَين:

أ) الإدراك الصحيح والدقيق للوحي وإبلاغه إلى الناس.

ب) تطبيقه عمليًا، بحيث تكون حياتهم وسلوكهم وأفكارهم وعواطفهم وانفعالاتهم تجسيدًا عينيًا لتعاليم الوحي والشريعة.

وقد وسَّع الله عزّ وجلّ حدود «الميزان» من دائرة الأنبياء عليهم السلام إلى أهل بيت النبي الأكرم: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]؛ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾[2]، وقد أجمع المفسرون أن «القربى» هم

(1) سورة الأحزاب: الآية 33.

(2) سورة الشورى: الآيات 17 ـ 23.

عترة النبيّ وأهل بيته... فإذا اتخذ الإنسان أهل بيت النبوّة «ميزانًا» لحياته، مقتديًا بهم في فكره وعواطفه وسلوكه، فإنّ هذا الاقتداء المقترن بمحبّتهم، يسرّع فيّ سبيل التقرب إلى الله... وقد قال الرسول الأكرم (ص): **«مَن أحبَّ أن يحيا حياتي ويموتَ ميتَتي، ويدخلَ الجنّةَ التي وعدَني ربّي، وهيَ الجَنّة الخُلدُ، فليتولَّ عليًّا وذرَّيته من بعدِه، فإنهم لن يُخرجوكم بابَ هدًى ولن يُدخلوكم بابَ ضلالةٍ»**[1]. فضلاً عن حديث الثقلين، وحديث سفينة نوح، والحديث المتواتر: **«أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها، فمَن أرادَ العِلمَ فَلْيَأْتِ البابَ»**[2].

«الإمام المبين»:

«الميزان» أعلى رتبة تكوينية في العالم الإنساني - في عالم الإمكان - فيها تكمن العصمة التكوينية، وهي «محفوظة» بقدر «الكتاب» والقرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[3].

نحن أيضًا نملك نظامًا ومَلَكَةً تكوينية هي حرية الخيار تمكّننا إنْ أعملْنا إرادتنا وعملنا الصالحاتِ وسلكنا الصراطَ المستقيم وسبيل التقرّب، من الوصول إلى أعلى علّيين. وهذا مشروطٌ بأن نحافظ على أنفسنا ونصونَها[4].

وقد وضع الله عزّ وجلّ الموازينَ القسط كموازين عامّة يحاسب

---

(1) الحديث 2578، **كنز العمّال**، ج6، ص 155.

(2) الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، **المراجعات**، ص 171.

(3) سورة الحجر: الآية 9.

(4) ﴿...وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، سورة التوبة: الآية 112؛ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾، سورة المؤمنون: الآية 9.

الناس على أساسها: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

«والفرقان» و«الضياء» و«الذكر» والأنبياء في حياتهم ومماتهم هم الموازين القسط التي يحاسَب الناس على أساسها بشكل عام، لكنْ لكلّ واحد منا، أو مجموعة، أو جيل بحسب الزمان والمكان «ميزان» أو «إمام» خاص هو حجّة علينا في ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ﴾ ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾[2] ... يستدل من الآية الكريمة أن حشر البشر وقيامتهم حياةٌ خاصَّةٌ بهم هي من إنتاجهم وإرادتهم، ولا دخلَ لزمان ولادتهم ولأبوَيْهم وجنسهم وإقليمهم ومدينتهم وقريتهم ومجتمعهم ودولتهم وعصرهم وغير ذلك مما هو خارج عن إرادتهم واختيارهم. هم بذواتهم ومعهم «كتاب» أعمالهم، وما يتضمنه من فكر واستدلال وتقويم وعاطفة ومحبّة وعملٍ ومشاغلَ وسياسة ومواقف، وذلّ وعزّة وتفكير وبصيرة وعمىً... درجة كل واحد منهم ومنزلته تابعة لثقلِ المعارف الحقة والأعمال الصالحة: ﴿وَٱلْوَزْنُ

---

(1) سورة الأنبياء: الآيتان 47 و56.

(2) سورة الإسراء: الآيتان 71 و72.

يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾[2].

... الأنبياء والمعصومون عليهم السلام من رجال ونساء هم «الموازين»، وفي الوقت نفسه «الأئمة». لكن ليس كلّ إمام «ميزانًا» لأن «الإمام» يمكن أن يكون كافرًا وضالًّا ومضلّا. لذا يجب أن نعرف المعنى الذي يقصده الوحي من لفظة «الإمام»، يقول الراغب الأصفهاني ـ المتوفّى في العام 502هـ: الإمام هو الذي يتبعُه شخصٌ آخرُ ويأتمُّ به، ويمكن أن يكون «إنسانًا» يقتدي بأقواله وأفعاله، أو أن يكون «كتابًا» أو غير ذلك. سواء كان معبّرًا عن الحق أو ممثّلاً للباطل. وجمع الإمام «أئمّة»، ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾، أيْ بواسطة الإنسان الذي كانوا يقتدون به، كما يقول: «بكتابهم»[3].

مما قاله هذا المفسر المتبحّر في علوم القرآن يمكن أن يكون مصداق «الإمام» النهجَيْن الثقافيَّيْن: الثقافة ـ السياسية التوحيدية، والثقافة ـ السياسية الإلحادية، اللتَيْن عاشتا وتعيشان متجاورتين ومتقابلتين، وفي مواجهة بعضهما منذ بداية التاريخ، إحداهما «الحق»، والأخرى «الباطل». ويكون الإنسان «إمامَ الحق»: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[4]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[5]؛ ويكون

---

(1) سورة الأعراف: الآيات 8 ـ 10.

(2) سورة القارعة: الآيتان 6 و7.

(3) سورة التوبة: الآية 12.

(4) سورة البقرة: الآية 124.

(5) سورة الأنبياء: الآية 73.

الإنسان «إمامَ الباطل والكفر» كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾[1]؛ الكتاب الذي هو إمام الحقّ والمعارف الحقَّة القرآن وجميع كتب الوحي الأخرى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ﴾[2]. سواء وهو في صدر النبي، أو حين يجري كلامًا على لسانه ويصل إلى أسماع حفَظَته، وسواء كان مكتوبًا على الورق بمضمونه ومعانيه وبلاغته. وهو المعارف الحقّة والشريعة التي أوحى بها إلى آدم وإلى الأنبياء من بعده حتى نوح وحتى خاتم الأنبياء[3].

بناء عليه فإن الراغب الأصفهاني أصاب حين عدّ الأنبياء عليهم السلام وأئمة الكفر والضَّلالة وضمناً الفلاسفة الملحدين والكهان القدماء والمحدثين، والكتب السماوية وكتب أولئك الفلاسفة والكهّان من مصاديق «الأئمة» الذين أشار إليهم الله عزّ وجلّ.

ومن المحتمل أن يكون لتلك الكتب نظائرُ لم يتوصل إليها نظره، فأنا أضيف إليها النهجَين التوحيدي والإلحادي، كما أن المتتبِّع لتاريخ التفسير يتوصل إلى مثل هذا الرأي، كما يُروى عن عليٍّ (ع) قوله: **«الأئمّةُ فريقان: أئمّةُ الهُدى وأئمّة الضَّلَالة»...**

من ناحية أخرى فإن كيفية حياة الناس وكيفية موتهم مرتبطتان ارتباطاً عضويًّا بتبعيَّتهما لقوانين واحدة، واضعوها ومنفّذوها يمكن أن ييسّروا الحياة الإنسانية والحياة الطيّبة، كما أنهم قادرون ـ وهذه إحدى خصائصهم ـ أن يفرضوا الحياة الدنيّة الحيوانيّة المحضة، أو الحياة دون الحيوانية، ويحوّلوا الناس إلى قِرَدَةٍ وخنازيرَ وعبدةِ للطاغوت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ

---

(1) سورة التوبة: الآية 12.

(2) سورة هود: الآية 17.

(3) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص 401.

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

لقد أثبتت التجربة التاريخية أن الحكومات المؤسّسة على الشريعة بقدر المساعي التي تبذلها، وبقدر المكانة التي تحتلها، تيسّر سبل الحياتين: الدنيا والآخرة، وتمهّدها فتزيل العوائق التي تحُول دون الرشد المعنوي أو تذلِّلُها. في حين أنّ الأنظمة السياسية الطاغوتية والحكومات المستعمِرة للدول الضعيفة تحرم الناس من سبل الحياة الإنسانية، وتعادي الدين والأنبياء والفقهاء والصلاة وجهاد الأعداء، وتربط بقاءها بالقضاء على مساعي التحرر ونيل العزَّة والارتقاء المعنوي.

الركيزة الثقافية ـ السياسية للأنظمة الاستعمارية والعدوانية والمتسلطة هي النهج الإلحادي ـ الطاغوتي..

لم يرِد في التاريخ اسمُ مستكبِر أو مترَف آمنَ بسنَّة الوحي ـ التوحيديَّة أو عمِل بها، أو أنَّه أتاح الفرصة للذين يحكمهم ويسيطر عليهم أن يؤمنوا بها وأن يعملوا بموجبها. ونظام ستالين والنظام الأميركي البهلوي أنموذجان صارخان لكيفية معاملة الشعب المحكوم والمقهور، كما أن تاريخ المستعمرين في القرون الأخيرة يؤكّد هذه الحقيقة.

---

(1) سورة المائدة: الآيات 55 ـ 60.

بناء على ذلك، وبدلالة الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة والتجاربِ التاريخية المتتابعة والمتراكمة، فإنَّ كيفية وجود الإنسان في هذه الحياة، هي ذاتها بعد موته، والآثار المترتبة عليها في حياته البرزخية، يحملها يوم حشره عضوًا في مجموعة أو زمرة أو أمّة، تشكل فريقًا سياسيًا ـ ثقافيًا هو ناتجُ قراراته وخياراته المهمَّة والأساسيّة. إن جميع هذه التحولات الكيفية من أعلى الوجود إلى أدناه عائدةٌ إلى مَلَكةِ الاستقلالية لديه، والتي هي ذاتُه الأصلية. وعائدةٌ إلى نوع الحياة التي اختارها من بين أنواع الحياة الستَّة، هل اختار إحدى الحياتين الإنسانيّة أو الطيّبة؟ أم اختار إحدى الحيوات الدنيّة: الاستكبارية، أو المترفة، او الحيوانية المحضة أو ما دون الحيوانية؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ... ﴿٣﴾﴾[1]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[2]؛ وعائدة إلى من كان يعبد وماذا كان يعبد، وبمن كان يقتدي، ومن كان يحب؟ وماذا يحب؟ هل كان يعبد الله أم المال؟ وهل كان يقتدي بالرسل وأئمة الحق، أم كان أئمّة الضلالة قدوتَه؟ وهل كان يحبّ المال والجاه والأولاد والنعيم الزائل، أم كان يحبّ اللهَ والكمالَ والجمالَ المعنويَّ والاستقلال والحرّيّة والخير والإحسان والعمل الصالح والجهاد المقدّس، ويحترم الشهداء ويعشق مُثُلَهم النابعة من عشق الله ومحبَّته؟: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا

---

(1) سورة إبراهيم: الآية 3.

(2) سورة النحل: الآية 107.

﴿نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾[1].

ولأيّ حكم كان يخضع: لحكومة مصدر قوانينها وأحكامها أوامر الله ونواهيه، أم حكومة طاغوتية متسلّطة متجبّرة؟ ومن كان أولياؤه الذين سيشفعون له؟.

الشَّفاعة:

يقول الراغب الأصفهاني: «الشفع ضمُّ الشيء إلى مثله... والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلاً عنه. وأكثر ما يُستعمل في انضمام من هو أعلى حرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى... والآية **«ومن يشفع شفاعة حسنة...»**، و**«من يشفع شفاعة سيئة...»** بمعنى أن الشخص يرتبط ويلتحق بآخرَ يساعده ليصبح مثله في عمل الخير أو عمل الشر... وقال البعض: إنّ الشفاعة معناها أن يفتح إنسانٌ بابًا لآخرَ أو لآخرين، أو يسنّ سنّة حسنة أو سيئة، وهذا هو معنى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): **«مَنْ سَنّ سُنّةً حسنة فَلَهُ أجرُها وأجرُ مَن عَمِلَ لها. ومَن سَنّ سُنّةً سيئة فعلَيه وِزْرُها وَوِزْرُ من عَمِل لها»**، وعنه (ع): **«القرآن شافع مشفع»**، والشُّفعة في اللغة الزيادة، وهو أن يشفعك في ما تطلب حتى تضمّه إلى ما عندك، فتزيده وتشفعه بها، أيْ أن تزيده بها، أيْ أنه كان وترًا واحدًا فضمّ إليه ما زاده وشَفَعَه به»[2].

والشفاعة شفاعتان: «الشفاعة السّيئة»: الانضمام إلى زمرة المنافقين وسائر الكفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ

(1) سورة الإنسان: الآيات 3 ـ 10.

(2) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص 263.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1]، والتعاون مع الحكم الإلحادي الطاغوتي. والشفاعة الحسنة: الانضمام إلى أئمة الحق، وإلى الحكومة التوحيدية ومساعدتها سياسيًّا وعسكريًّا، في سبيل الله الذي يكفل الارتقاء من الأوضاع المذلّة إلى الحرّيّة والعزة: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[2]. نستعين بالقرآن وبـ «الموازين القسط»، نتبعهم ونساعدهم وننجذب إليهم، فنصعد بهم ومعهم نحو مبدأ الوجود.

هذه المسيرة وهذه السنّة التكوينية وضعها مبدأ الوجود في نظام الوجود: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ... ﴿٤٤﴾﴾، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[3].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

---

(1) سورة الممتحنة: الآية 1.

(2) سورة محمد: الآية 7.

(3) سورة البقرة: الآيات 255 ـ 257.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

في هذه الآيات وفي آيات أخرَ تأكيدٌ على أن شفاعة الأنبياء والأئمة منوطةٌ بإذن الله عزّ وجلّ، وبأمره، ولا تكون شفاعتهم إلّا في رضى الله، أي أنّ هذه الشفاعة ليست إلّا علاقة وجودية بين الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة، وارتقاء المنزلة في نظام الوجود، أو الأجر الذي يمكن معرفته بواسطة التشريع الإلٰهي والتفكير والتجربة البشرية والمشاهدة.

وبما أن الشفاعة التكوينية تابعة للإختيار الإرادي والواعي للناس، فإنَّ سلسلة مراتب الشفعاء عملُها منحصرٌ بالمؤمنين الصالحين استمرارًا لنظام الوجود، ولا عمل لها بالنسبة إلى الكافر الذي ساءت أعمالُه و﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، ولا إيمانَ له ولا عمل صالح. وإذا كان يعتقد وهو في الدنيا بإمكانية أن يُشفع له يوم القيامة فإنّ ظنَّه باطلٌ ولا أساس له: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾[2]. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[3]، من خلال آيات الشفاعة هذه والآيات العديدة الأخرى التي تؤكد أن شرط التقرّب الإيمانُ والعمل الصالح، نفهم أن الشفعاء لا يشفعون إلّا للمؤمنين الصالحين: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ

(1) سورة الأنبياء: الآيات 26، 29.

(2) سورة غافر: الآية 18.

(3) سورة المدّثر: الآية 48.

ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا. . . .﴾[1]، إنه تاريخ الصراع بين الأنبياء ومُعاصريهم، بين النبيّ وأهل بيته وكفّار قريش، بين الحقّ والباطل بعامّة، وبين أنصار الحق وأنصار الباطل، والنهي عن الركون إلى الظالمين والاعتماد عليهم، والجهاد في سبيل الله والدفاع عن المظلومين ومحاربة الحكومات الطاغوتية، وإقامة دولة التوحيد والعدل. . .

(1) سورة هود: الآيات 113 ـ 115.

الفصل الثاني عشر

مسيرةُ التقرُّب، والمنزلة الرفيعة في نظام الوجود

إنّ الارتقاء المعنوي الذي هو مسيرة تبدأ من الأسفل باتجاه الأعلى، في سبيل الله العليّ، تتجلى في التخلّي عن الميول الدنيّة، واستبدالها بالميول السامية: المعرفة، علم الإناسة وعلم الكون التوحيديّان، الوعي بالمحيطين الاجتماعي والدولي، والإيمان والأعمال الصالحة...

إنّ إخماد الميول الدنيّة الموجودة فينا أو التي أوجدناها نحن في أنفسنا، أو خلقتْها العوامل المحيطة المخلّة والمفسدة، يقتضي أن نتَّخذَ موقف الصلاح وحالَ التقوى تجاهها وتجاه آثارها، وأن نشدَّ العزيمة على مقاومة هذه العوامل التي تحطّ من شأننا وتذلّنا وتأسرنا، وأن نفكّ الأُصُر والأغلال، أو نحطمَها، ونجتاز حالة الأسر والذلّ، ونرتقي إلى حالة الحرّيّة والعزّة.

أولى مراحل هذه المسيرة مرحلةُ وعي الذات والمحيط والكون، والوقوف على مدى صلتنا بعوامل المحيط الحسنة والقبيحة. وذلك بمعنى إحداث تنوّع وتغيير معرفيّ في المحيط الداخلي أيضًا. هذه

الثورة الداخلية ما هي إلّا انتقال من حال إلى حال، وخروج من الظلمات إلى النور، حالةُ تفجّر للنور واستبصار: ثورةٌ تمهّد لثورات أخرى في المحيط الاجتماعي، وفي المحيط الدولي، وحتى في المحيط الطبيعي، تثمرُ حرّيّةً وعزّة جديدتين.

المرحلة الثانية من هذه المسيرة ـ التي تتضمن بدورها مراحلَ أخرى ـ هي التحرر الكامل في المحيط الداخلي من قيود «العلائق الدنيّة» [حبُّ الشهوات من النساء و... الخيل المسوّمة والأنعام والحَرث]، التي هي أغلالٌ مرعبة، يلي ذلك إعمالُ التفكير والاستدلال والتعلم والتذكر والذاكرة والتقويم والمشاعر والانفعالات، والأنشطة المتعلقة بالعيش والعمل والسياسة من خلال **الحنيفية** الفطرية، المحرّك الذي يصلنا تكوينيًّا بمبدأ الوجود والكمال والجلال والجمال.

هنا في هذه النقطة من مسيرة التقرب والرشد المعنوي، نكون قد رجّحنا الحياة الإنسانية والحياة الطيّبة الأرفع على الحيوات الدنيّة، فنعمل على مواجهة الطاغوت والاستكبار العالمي، فيتحقق لدينا المُعطى السياسي المتمثل بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله والتمسُّك بالعروة الوثقى التي هي القرآن والشريعة والنبيّ والإمام والفقيه الصائن لنفسه الحافظ لدينه...

نصبح آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر: أولاً بمشاعر الصداقة والعداوة والنفور والغضب، وبعد ذلك باللسان والقلم والبيان، ومن ثَمَّ بكلِّ ما نملك من قوَّة: لنغيّره بأيدينا، وهذا ما حدث عندما كفر الشعب الإيراني في العام 1978م بالطاغوت وحطّم «الأُصر والأغلال» التي كان قد قيّده بها من خلال تشريعاته وقوّته العسكرية وأحكامه السياسيّة؛ ومنذ اللحظة التي رفع فيها أمام العالم شعاريْ «الموتُ للشاه» و«الموت لأميركا»، نال «الحرّيّة في المحيط

الاجتماعي» والاستقلال أو «الحرّيّة في المحيط الدولي»، قبل أن يتحقَّق النصر النهائي.

هذا هو مفهوم «النجاة» و«الفلاح» و«الفوز العظيم» والخطوة الكبرى في سبيل التقرّب إلى الله، أو الارتقاء من الأسر والذل إلى الحرّيّة والعزَّة، والمُعطى الاجتماعي والوطني، الذي يحمل في أحشائه الثورة المتكاملة الشاملة، التي يصبح الإنسان والشعب «نجومًا» و«مصابيح» و«شهباً» في سمائها، يتمجّدون في نظام الوجود، كلٌّ بحسب المرتبة التي نالها من المعرفة والإيمان والعمل الصالح.

ما من شك في أنَّ رشد الإنسان وتقرّبه إلى الله يتحقق في التاريخ وفي الحياة في المحيطات الثلاثة: الطبيعي والاجتماعي والدولي، فهو يتّخذ المواقف باستمرار، موقفًا تجاه محيطه الطبيعي وموقفًا تجاه المحيط الاجتماعي وحتى تجاه بواطنه ومحرّكاته العضويّة. وهو في مسيرة التقرّب يبدّل هذه المواقف على نحو خاصٍّ وبطريقة خاصّة، ليسهّل هذا التقرّب ويسرّعه.

هنا يُطرح سؤالان أساسيّان؛ الأول: هل الرشد والتقرّب أمرٌ مشهودٌ يمكن الإشارة إليه وقياسُه؟ وإذا كان كذلك أيّ معيار نستخدم؟ والسؤال الثاني: ما هي حدود الرشد والتقرّب؟

نقول في الإجابة عن السؤال الأول: إنّ معرفة رشد أيّ شخص وتقربّه ممكنةٌ بمقدار تحرّره من القيود والأصر والأغلال الموجودة في كلّ واحدٍ من المحيطات التي ينتمي إليها، يلي ذلك مقدار سيطرته على عوامل المحيطيْن الداخلي والخارجي المعوِّقة، وإلى أي حدّ استطاع أن يزيل العوائق التي تحُول دون رشده وتقرّبه؛ وبعبارة أبسط ما هي حدود حرّيّته ونجاته في المحيط.

في أثناء مسيرة الرشد والتقرّب يتغيّر موقعُنا في المحيط، فمسيرة رشدنا وتقرّبنا هي في الواقع مسيرة متطوّرة، بحيث إنَّ موقعنا بعد كلّ خطوة نخطوها في أيّ محيط، يصبح أكثرَ حرية مما كان عليه في السابق، وفي هذه المسيرة نتغلب تدريجيًّا على معوّقات الحياة الطيبة وعلى العوامل الدنيّة، ونتمكن من السيطرة على المحيط، [وهذا ما سيأتي تفصيله في ما بعد].

أما الجواب عن السؤال الثاني فهو: أنَّ هنالك أوضاعًا في المحيط لا تتغيَّر، حتى إن غيّرنا الطبقات الهشّة فيها، نصل إلى طبقات يصعب تغييرها، وما لا يتغيّر هو الحدود التي تقف عندها عملية الرشد والارتقاء، فعلى سبيل المثال: يمكننا في المحيط الطبيعي أن نحارب عوامل المرض، وآفات النباتات، وأن نحارب الحرارة والبرودة الشديدتين بالطاقة، لكننا نصل إلى نقطة لا يمكن تجاوزها أو العبور من خلالها: نحن مجبرون على تحمل الآلام والمصائب، وأن نشيخ ونهرَم ثم نموت. لا نستطيع الهرب من هذه الأوضاع، ولا قدرة لنا على تغييرها. نحن نعي حتمًا هذه الأوضاع والحدود، وهذا الوعي الذي هو منبع التأملات الفلسفية أيضًا، يتضمّن نتائج كثيرة العِبَر.

في الوقت نفسه هنالك أشخاص عديدون غافلون عن هذه الأوضاع وتلك الحدود الوجودية، أو أنهم غارقون في الجهل والغفلة؛ ينسَوْن الموت، فكيف بما يعقبه من بقاء وحياة وعذاب، يهربون من ضياء النور إلى أغوار الظلمات، فيشكلون أنموذجًا لإمكانية الضلال والأَسر والكفر والإنكار والانحطاط والبعد عن الله.

في خلال المسيرة من الظلمات إلى النور ـ أو الهداية ـ وفي مسيرة الارتقاء من الحيوات الذليلة باتجاه الحياة الطيبة أو حياة

الإيمان والتقوى، وحالة الرشد والتقرب، تصبح مواقعنا في المحيطات الأربعة أفضل مما كانت عليه، نصعد مراتب الوجود درجة درجةً ومنزلةً منزلة، وصولاً إلى المنزلة العليا. لهذا السبب، استخدم الله عزّ وجلّ للتعبير عن التقرّب إليه لفظةَ «الكرامة»، أي المكانة المحترمة، الرفيعة، الجليلة، وذات القيمة المعنويّة.

إن تكريم الله لنا أرفع من إكرامه لنا، وإكرامه أرفع من إنعامه. فإنعامه هو رحمته الرحمانية، وإعطاؤه نِعَم الوجود: الرزق وما شابه، وهذا أمرٌ مشترك بين الإنسان وسائر المخلوقات، وليس هبة خاصة به أو مكافأة.

إكرامه عبارة عن إعطائه النعم الأكثر قيمة للبشر وحدَهم، ويترافق ذلك مع الاحترام والتقدير والمكانة الاجتماعية.

ومن نماذج استخدام القرآن المجيد للفظة كريم:

﴿...وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[1]، ﴿...وَأَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾[2]، ﴿...كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[3] ﴿...وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[4]، وقول عزيز مصر لزوجته بشأن يوسف: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾[5].

التكريم أهمّ من الإكرام، فالله عزّ وجلّ «كرّم» بني آدم «تكريمًا» بإعطائهم نعمة «الإرادة» أو القدرة على اختيار الحَسَن والقبيح، العالي والدنيّ، طريق الخير وطريق الشرّ، طريق التعالي والتقرب إلى

---

(1) سورة النور الآية 26؛ سورة الانفطار: الآية 6؛ سورة الأحزاب: الآية 31.

(2) سورة الحديد: الآيتان 11، 18.

(3) سورة النمل: الآية 29.

(4) سورة الشعراء: الآية 58.

(5) سورة يوسف: الآية 21.

الله، أو طريق الانحطاط والبعد عن الله، والعقل والتعقل، وإمكانية الرشد والتقرّب أو نيل المنزلة الرفيعة في نظام الوجود.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[1].

وذَكرَ للإعطاء المقترن بالاحترام ثلاث إمكانيات:

1 ـ إمكانية التقرّب وهي منزلة الارتقاء في نظام الوجود. والحرّيّة في المحيطات الأربعة، بعد تغييرها وتذليل العوائق، بحيث يصبح الإنسان مؤثرًا فيها لا متأثرًا بها، فاعلاً لا منفعلاً، «عزيزًا» مقتدرًا، لا يخضع ولا ينكسر، وليس ذليلاً أسيرًا خاضعًا لا حول له ولا قوة، ولا همّةَ، ولا جهد ولا مسعى.

2 ـ إمكانية السيطرة على المحيط الطبيعي والاستفادة من بَرّه وبحره وثرواته، وهذه هي الحرّيّة في المحيط الطبيعي.

3 ـ إمكانية لختيار الأطعمة والألبسة والمساكن المطهّرة «الطيبة»، الحلال، المستحبّة، وترك الأنواع النجسة والمحرّمة، وهذه هي الحرّيّة في المحيط الداخلي.

الإهانة نقيض الكرامة: ﴿...وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[2].

الكرامة أو المنزلة العليا في نظام الوجود، ليست أمرًا حتميًّا ومتحقّقًا لكلّ فرد من أفراد البشر، وإنما هي إمكانيّةٌ متاحة وليس أكثر منَ ذلك. أو بحسب التعبير الفلسفي (القديم)، هي «قوّة» يمكن أن تتحقّق «بالفعل» أو لا تتحقق، وهذا هو الامتحان الذي يجب أن يجتازه الإنسان في هذه الحياة الدنيا: إما أن يعمل بكل عزم وهمّة

---

(1) سورة الإسراء: الآية 70.

(2) سورة الحجّ: الآية 18؛ سورة الفجر: الآية 15.

وجهد لاستغلال هذه الإمكانية وهذه القدرة الموجودة «بالقوة» في بنيته الموروثة، فينال المنزلة الرفيعة في عالم الوجود، أو على العكس من ذلك يتجاهلها، ولا يكترث بها، فيبقى قابعًا في الدرك الأسفل من منازل الوجود.

إنّ التقرب من الله أو البعد عنه من خلال هذا الامتحان وتلك التجربة، يحدث في هذه الدنيا لكل فرد من الأفراد. فكلّ شخص من الأشخاص يتيح لنفسه درجة من «الكرامة»، أو مرتبة من «الإهانة»، ترافقه بعد موته في حياته البرزخيّة ومن ثم في يوم القيامة. من هنا نرى أنَّ المقرّبين أي الذين تحرّروا في الحياة الدنيا من القيود والعوائق في المحيطات الأربعة ونالوا الكرامة، ينالون في الحياتين بعد الموت «الثمار» والكرامة أيضًا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾[1]، ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾[2]؛ الذي آمن بنبيٍّ عصره، يقول بعد موته: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[3]

مقابل هؤلاء نرى الذين سلكوا طريق الكفر والشر والانحطاط، فابتعدوا عن الله فاقِدي الكرامة يوم القيامة: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾![4].

---

(1) سورة الواقعة: الآيتان 11، 12.

(2) سورة الصافّات: الآيتان 42، 43.

(3) سورة يس: الآيتان 26، 27.

(4) سورة الواقعة: الآيات 42، 48.

من هنا نستنتج أنَّ فقدان المنزلة الرفيعة في الحياة الآخرة استمرارٌ لفقدان المنزلة الرفيعة في الحياة الدنيا، والسلاسل والأغلال والسعير في الآخرة امتدادٌ لقبولهم القيود والسلاسل والأغلال في الحياة الدنيا، ورضاهم بأحكام الطاغوت وسلطة المستكبرين والمحتلين، ورضوخهم للاستعباد والإذلال؛ كما أنَّ منزلة المتّقين المقرّبين الرفيعة امتدادٌ لكرامتهم ومنزلتهم الرفيعة في الحياة الدنيا، ومسيرة تقرّبهم وتحرّرهم من الأصر والأغلال والسدود والعوائق الداخلية والاجتماعية والدوليّة...

في مسيرة التقرّب إلى الله بقدر ما نحرّر أنفسنا من «الأصر والأغلال»، ونتحرر في المحيط، ونناك المنزلة الرفيعة والمقام المؤثّر في نظام الوجود، سنحافظ بعد الموت على هذه المنزلة وذاك المقام.

إن نيلَ الكرامة أو المنزلة الرفيعة في نظام الوجود، معناه بثّ الخير والتأثير في الناس والمجتمعات والساحة الدوليّة.

أعلى مراتب العالم الإنساني:

الإنجاء وإطلاق الثورة:

إن مسيرة الفرد الإرادية الواعية من حالات الأسر إلى حالات الحرّيّة، التي هي نفسها مسيرة تقرّبه إلى الله ونيله المنزلة الرفيعة في نظام الوجود، هي التي تجعله أكثر تأثيرًا في المحيط.

هذا التأثير في المحيط ماهيتُه إفاضةُ الخير وتعميمُه. فبالأعمال الصالحة يُنقّي الإنسانُ المحيطَ من العوامل المضرّة والمفسدة، ويمهّد الظروف الملائمة لصلاح الآخرين، ومنها إنجاؤهم. فالإنسان

الحرّ المؤمن، هو الذي يتمرد ويثور على عوامل المحيط الفاسدة والمفسدة، وعلى الطاغوت والظلم، والاستثمار والتسلّط، وفي الوقت الذي يحرّر فيه نفسه، يمهّد الأرضية لتحرير الآخرين. في هذه الحركة، أو من زاوية الرؤية هذه لسلوكه وحياته وعمله، يظهر أنه تخلّق بنوع آخر من الأخلاق الإلٰهية ونال القربَ من الله «المنجي».

من هذه الناحية فإنّ مسيرة الانحطاط أو البعد عن الله مضادّةٌ لمسيرة التعالي والتقرّب. ومع أن سبيل الانحطاط غيرُ منحصر ببقاء الفرد في ظروف الأسر، أو انتقاله الواعي

والإرادي من حالات الحرّيّة إلى حالات الأسر، فإنّ الأسوأ من ذلك المسار الذي يفرض في أثنائه الأسرَ على الآخرين. في مساريِ الانحطاط الحيواني وما دون الحيواني يأسر نفسه دون أن يؤدّيَ ذلك مباشرة إلى أسر الآخرين. في حين أن مسار الانحطاط الدنيوي وبخاصة مسار الانحطاط الاستكباري يجرّ وراءه أسر الجماهير الغفيرة من البشر. فإنّ التعلق بالدنيا «وكنزَ» الأموال والبخل والإسراف واللهو، يؤثّر في عامة الناس فقرًا وحرمانًا وكل ما يمكن أن ينجم عنهما من مفاسد. والمستكبِر باحتلاله البلدانَ وتسلُّطه على الآخرين وإفساده في الأرض، يتحول إلى عامل انحطاط وكفر وفسادٍ وإذلالٍ وأسرٍ للشعوب.

وكما أن المؤمنين الأحرار من حيث قربهم ومنزلتهم في نظام الوجود وتأثيرهم في المحيط يحتلّون درجاتٍ متفاوتة، كذلك فإنّ الرعاع ليسوا في مرتبة واحدة من حيث الانحطاط والبعد عن الله، وإنما هم متفاوتو الدرجات.

درجات القرب:

لكل فرد ـ من المؤمن الصالح وحتى الكافر الطالح ـ روحيًّا ومعنويًّا وأخلاقيًّا مرتبةٌ ودرجةٌ، مع الفرق أن درجات المؤمنين الصالحين رفيعةٌ، ودرجات الكفار الطالحين في الدّرك الأدنى. ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

هذه الحقيقة ترتكز على سلسلة من الحقائق الدينيّة ووقائع علم الإناسة. انطلاقًا من وجود بنية لدى الإنسان ومحركات وميول فطرية، وإرادة مستقلة، وصولاً إلى أنواع الحياة، وطرق الخير والشر أو التعالي والانحطاط وقضيتيِ التقرّب إلى الله والبعد عنه، وعدد كبير من الوقائع والظواهر الأخرى نشير إلى بعضها.

إنّ وجود درجات القرب، مبنيّ على وقائع وظواهر لا حصر لها؛ من بينها ضعفُ الإيمان والأمل والتقوى والتوكّل والصبر والتسليم وعدم ثباتها؛ تدرّج الإيمان والتقوى والصبر وغيرها؛ قابليتها للتطور والزيادة والنقصان، كما يقول أمير المؤمنين: **«فمنَ الإيمانِ ما يكونُ ثابتًا مستقرًّا في القلوبِ ومنه ما يكون عواريًا بينَ القلوبِ والصدورِ إلى أجَلٍ معلوم. فإذا كانت لكم براءةٌ من أحد فقِفُوه حتى يحضرَه الموتُ، فعند ذلك يقعُ جدّ البراءة»**[2].

إن الإيمان والتقوى والتسليم والأمل والتوكل ما لم تتمَّ المحافظة عليها بواسطة الأعمال الصالحة: فإنها ستتدنّى، وتتحول إلى نوعٍ من المباهاة، وفي هذا السياق كلام أمير المؤمنين (ع): **«سُوسوا إيمانكم بالصَّدَقة»**.

---

(1) سورة آل عمران: الآيتان 162 و163.

(2) **نهج البلاغة**، ج2، ص 128.

إن الإيمان يُحفظ بالأعمال الصالحة ويزداد ويقوى، فدرجات مواجهة المنكر هي من الأدنى فالأرفع:

1) بالقلب (إظهار الغضب والاستنكار، الأمل بزوال المنكر، تكريم المجاهدين والمفكّرين الذين كان لهم دور في هذا المجال).

2) باللسان (قولاً وكتابة).

3) باليد (عمليًّا).

إن الله عزّ وجلّ يدعو الذين آمنوا إلى صعود درجات الإيمان من الأضعف إلى الأقوى.

فالإيمان أحيانًا سلوك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ وأحيانًا خلقٌ ووضع نفسي: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ وأحيانًا هو صفة ذاتية كقول الرسول عن عليٍّ يومَ الخندق: «**برزَ الإيمانُ كلُّه إلى الشرِّ كلِّه**»، أو قول المعصوم (ع): «**نحنُ الكلماتُ التامّاتُ**» [الإيمان والتقوى والتسليم والرجاء والتوكل والصبر]، وهذا الاستكمال يتم بالعمل الصالح كما تدل الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾[1].

إنّ ارتفاع درجة المؤمن وارتقاءها مرادفان لرشد أوضاعه النفسانية الطيّبة وارتقائها، فالإمام زين العابدين في دعائه بالخير للرسول الأكرم يرجو «رفعَ درجتِه»: «**اللَّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِ محمدٍ... وارفَعْ دَرَجتَه**».

إنَّ الأعمال الصالحة وأهمّها العبادات المحضة (التقوى الفردية)

---

(1) سورة فاطر: الآية 10.

والعبادات الاجتماعية (التقوى الاجتماعية) ترفع صاحبَها وتزيد من درجات قربه. كما أن الظلم والمعصية والعمل الطالح تؤدي إلى هبوط صاحبها درجات نزولاً. ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[1]، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[2].

إنّ مراتب المؤمنين تابعة لدرجة الإيمان والأمل والتقوى والتسليم والتوكل والصبر لديهم، كذلك أنواع أعمالهم الصالحة وحجمها وسعتها وميزاتها ومداومتهم عليها: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾[3].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾[4].

المؤمنون القاعدون المجاهدون بأموالهم وأنفسهم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم والمهاجرون في سبيل الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[5].

إن العصر والظروف الاجتماعية وغيرها من العوامل تؤثر في

---

(1) سورة الأعراف: الآية 19.

(2) سورة الأنعام: الآية 132.

(3) سورة طه: الآيتان 74، 75.

(4) سورة النساء: الآية 95، 96.

(5) سورة التوبة: الآية 20.

تحديد قيمة العمل الصالح وقدرته على رفع مرتبة عامله، فالذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم قبل فتح مكة مثلاً أرفع درجة من الذين جاهدوا بأنفسهم وأنفقوا أموالهم بعد الفتح...

وفضلاً عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية للأمّة، فإن الظروف الشخصيَّة للإنسان تؤثر في تحديد قيمة عمله. فالفقير الذي ينفق من ماله ليس كالغني في مرتبة سواء: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾[1].

إن اختلاف مراتب الأنبياء خاضع أيضًا لهذه العوامل نفسها، ولعوامل أخرى كذلك: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ...﴾[2].

يُستنبط من تتبّع الآيات الكريمة وجود أربع مراتب متميزة من بعضها بشكل كامل في التقرّب، تنعكس بوضوح في أعمال الشخص:

1 ـ مرتبة القسط (القائمون بالقسط).

2 ـ مرتبة العدل (العادلون).

3 ـ مرتبة الإحسان (المُحسنون).

4 ـ مرتبة البرّ (الأبرار).

وأعضاء كلّ طبقة من هذه الطبقات درجاتٌ أيضًا أعلى وأدنى، لكن لم تذكر أسماء لهذه الدرجات. فالعدل كما يقول أمير

---

(1) سورة آل عمران: الآية 134.

(2) سورة البقرة: الآية 253.

المؤمنين (ع) هو الإنصاف، أما الإحسان فهو عبارة عن التفضّل أو الزيادة التي تعطى للشخص فوق حقه. فالعدل صفة لنوع من السلوك، والإحسان صفة لنوعٍ آخرَ منه.

تنوّع درجات الوجود:

إن كل فرد يتقدم في سبيل التقرب بحسب درجة تقواه، فينال الكرامة أيِ القيمة المعنوية: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. فنحن نشهد آلاف المراتب الوجودية في المجتمعات البشرية، وذلك لجهة إيجابية «القيمة» ووجودها في الإنسان وليس انخفاضها وانحطاطها أو فقدانها.

في هذه المراتب من القرب والكرامة والحرّيّة، للأنبياء المكانةُ ذاتُها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

والأنبياء ليسوا في درجة واحدة: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[2]، والملائكة الذين يقومون بمهام عظيمة في نظام الوجود يحتلون مرتبة وجودية رفيعة، ويعملون جميعًا في خدمة حياة الإنسان، وكذلك في خدمة تقرّبه إلى الله وإحراز الكرامة. لكن لماذا هم في خدمة الإنسان وحده من بين سائر الموجودات والأحياء؟ فقد أجاب الله عزّ وجلّ عن هذا السؤال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾[3].

---

(1) سورة الأنبياء: الآيات 26 ـ 28.

(2) سورة البقرة: الآية 253.

(3) سورة الأعراف: الآية 11.

آنذاك سبقت مرحلةُ الجنَّة مرحلةَ الحياة الدنيا. وأخيرًا بدأت المرحلة التاريخية للبشر التي نعيش نحن فيها الآن. ولفهم معنى سجود الملائكة والجنّ لنوع البشر، يجب أن نفكر في سجود جميع عناصر الوجود لله مبدعِ عالم الوجود: «السماوات والأرض والشمس والقمر والأفلاك والشجر ومعظم البشر.. سجودهم سجود تكويني وهو عبارة عن الحركة والدوران بأمر الله ومشيئته، وأكثر الناس بإرادتهم وعقلهم وسائر القدرات التي وهبها لهم الله عزّ وجلّ، يصِلون إلى الحرّيّة والكرامة والقرب من الحق، وكثير منهم يسلكون بملء إرادتهم وبعملهم طريق الانحطاط والعصيان، ليبتلوا «بالمهانة» بدلاً من الكرامة وبالألم والعذاب والانحطاط، وبحسب المشيئة فإن نتائج كلّ من هاتين الإرادتين والخيارَيْن وآثارها وعواقبها هي معلولات مترتبة على عللها التكوينية الخاصة...

تعمل في نظام الوجود **أواليّة** أخرى باسم **الشفاعة** مرتبطة بالمراتب السامية أو بكرامة الوجود وكذلك بدرجات القرب، وبالقوى والعناصر المساعدة للإنسان المؤمن الصالح الباحث عن القرب الإلٰهي. الشفاعة أسلوب لنيل هذه المساعدة والمدد وإعطائهما للآخرين... إن نيل المساعدة والمدد في طريق التقرب ونيل الكرامة عبارة عن طلب الشفاعة، وهي مثل الدعاء تعدّ من المجاهدات في سبيل التقرّب...

الشفاعة وساطة في إيصال الخير ودفع الشر في عالم الأسباب والعلل. والشفاعة أو الوساطة معناها أنّ كلّ سبب يكون واسطة بين السبب الذي يأتي بعده وبين مسبّبه، بحيث إنّ مجموعة الأسباب توصل أنواع النعم والعطايا الإلٰهية ـ الرحمة والخلق والإحياء والرزق و...إلخ - إلى مستحقّيها: ﴿...لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ...﴾[1]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾[2].

الشفاعة في الآيتين المذكورتين اللتين تتحدثان عن خلق السماوات والأرض، وردت بمعناها التكويني، والشفاعة في عالم التكوين معناها أن العلل والأسباب واسطةٌ بين الله والمسبّبات لتدبير أمورها، وتنظيم وجودها وبقائها.

وقد قال الرسول الأكرم **«إنّ الذينَ يَشفَعُون للعاصِينَ يومَ القِيامةِ وتُقبَلُ شفاعَتُهم: هُمُ الأنبياءُ والعُلَماءُ والشُّهَداءُ»**، ويقول أمير المؤمنين (ع): **«الشفيعُ جناحُ الطالب»** [أيْ طالب القرب]، ويقول الإمام السّجاد (ع): **«اللّهمّ فإني أتقرَّبُ إليكَ بالمُحَمّديّة الرفيعةِ والعَلَويَّة البيضاءِ»** [**أيْ بواسطة السّنَّة الثقافية ـ السياسية التوحيدية الوحيانية**].

---

(1) سورة البقرة: الآية 255.

(2) سورة يونس: الآية 3.

الفصل الثالث عشر

الثورة

تفيد لفظة الثورة معنى التغيير بشكل عام، وفي أمور متنوعة، وفي مسارين واتجاهين متضادين: الإيجابي والسلبي، أو الحُسن والقُبح، أو الكمال والانحطاط، لكنه يفيد في معظم الأحيان المعنى «الإيجابي» والخير والكمال. الثورة حركة «تغييرية» لكن يختلف معنى التغيير بين استخدام وآخرَ، هو التغيير الاجتماعي أو التغيير السياسي بحسب علماء الاجتماع السياسي، الذين لم يتمكنوا من تقديم تعريف جامع مانع للثورة؛ فقد استخدموا هذه الكلمة للدلالة على الأحداث التغييرية الكبرى التي حدثت في الماضي في مجتمعات بعض الدول المستقرة سياسيًّا في معظمها؛ كالثورة الفرنسية الكبرى وثمارها ونتائجها في القرن التاسع عشر، وثورة العام 1917م في روسيا، والنتائج والآثار التي ترتبت عليها في القرن العشرين في أوروبا والعالم بأسره، أو حركة جيش التحرير الإيرلندي ضد الإنجليز، والثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي... في هذا السياق احتلّ مكان الطبقة الحاكمة طبقة جديدة لم يكن لها خبرة في الحكم من

قَبلُ، واعتمدت على العنف، وعلى تغيير في ماهية الحكم ومقاصده وقوانينه وتشريعاته. . .

الأمر مختلف عمّا حدث في الثورات التوحيدية (الرسالات)، خلافةً الله، وتطبيقًا لشريعته وأحكامه،فحلَّ النبيُّ والمعصوم مكان «الطاغوت» أو المستكبرين والمترفين والمحتلين والغزاة أو عملائهم. . . تطبيق الأحكام والشرائع التي تثمر أمنًا معيشيًّا وارتقاءً معنويًّا وحرية وعزة وكرامة، ومنزلة رفيعة في نظام الوجود، أو القرب من الله، وإسعاد عامّة الناس. وتثير في الوقت عينه غضب المستكبرين والمترفين وناهبي الثروات الوطنية، ونفورهم وعداءهم. . .

من هنا يرى علماء الاجتماع السياسي أن «لفظة الثورة من نوع الألفاظ ذات المضمون الانفعالي. . . فالناس في الولايات المتحدة كما يرى برينتون[1] لم يكونوا سعداءَ بثورة تشرين 1917م في روسيا، ولا بالثورة الصينية، ولا يزال[2] النبلاء الفرنسيون يستثارون سلبًا من سماع لفظة ثورة التي تنكَأ جروحهم التي لم تندمل من رُهاب «مرحلة الرّعب» (إعدام الأشراف والنبلاء والساسة من أعوانهم). في حين أن لفظة الثورة لا تزال[3] حتى الآن في روسيا لفظة مقدسة، أما في الصين وكوبا، فتبدو الثورة شيئًا أكبر وأعظم مما يمكن أن تؤدّيَه «اللفظة».

هذه هي الحقيقة التي أمرِنا الله عزّ وجلّ منذ 1400 سنة أن نصغيَ إليها، حيث يستخدم للثورة عبارة (ظهور التشريع الإلٰهي

---

(1) كرين برينتون، **تشريح الثورات الأربع**، ص 3.

(2) المقصود حتى العام 1965م تاريخ هذا الكتاب.

(3) المصدر نفسه.

التوحيدي وتفوّقه على أيّ تشريع أو حكم آخر): ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[1].

يرى علماء الاجتماع السياسي والثوري من ناحية، أن لفظة الثورة تطلق لدى العامة وعلماء الاجتماع كذلك، على التحولات والتغييرات المتنوعة والتي لا حصر، التدريجية أو الفجائية، العنفية أو السلمية، أو التوافق على أمور وأشياء مختلفة، من تفكير الناس إلى نمط لباس النساء... وهم من ناحية أخرى لم يتعرفوا ثورةً حقيقيةً في التاريخ، إن لم يكونوا كلّهم فعلى الأقل معظمهم، لذلك فإنهم على الرغم من اجتهادهم ومساعيهم، لم يستطيعوا تقديم تعريف جامع مانع للثورة الاجتماعية...

لكن مما سبق ومما كتبناه من قبلُ عن «الثورة الإسلامية الشاملة»، ومتابعة حركة الثورة الإسلامية الإيرانية، التي هي إحياء لرسالات الأنبياء أو ثوراتهم الشاملة، نستنتج أن الثوراتِ الكبرى في التاريخ تُربّي في رحمها جميعَ هذه التغييرات والتحولات التي يعتقد علماء الاجتماع السياسي أنّها لا تجتمع في رحم ثورة واحدة، استمر حدوثها عقودًا، ولكنّ آثارها ونتائجها غطّت القرون المتمادية...

يبدأ كراين برينتون كتابه بهذه العبارة: «الثورة من الألفاظ غير الدقيقة، أطلقت على الثورة الفرنسية وعلى الثورة الصّناعية، كما تطلق على إحدى الثورات الاجتماعية: الثورة في التفكير، الثورة في أزياء النساء وغير ذلك، وهذا الفهرس يمكن أن لا يكتمل على الإطلاق».

---

(1) سورة الصّفّ: الآية 9؛ سورة التوبة: الآية 31.

وفي معجم العلوم الاجتماعية[1]، جاء شرح لفظة «الثورة» على النحو التالي: «استخدم معظم المؤلفين المعاصرين مصطلحَ الثورة للدلالة على المعاني التالية:

أ - التغييرات الجذرية المفاجئة، التي تطرأ على الأوضاع والأحوال السياسيّة والاجتماعية، أي أنها حين تقع، تطيح بالحكم القائم، وبالنظام الاجتماعي والحقوقي بصورة مفاجئة، وأحيانًا باستخدام الحكم الجديد لأساليب العنف.

ب - التغييرات الجذرية غير السياسية، علمًا أن مثل هذه التغييرات تحدث بتؤدة وبدون عنف.

كما تستخدم في عصرنا مصطلحاتٍ مثل: الثورة العلميّة، الثورة الفنيّة، الثورة الثقافيّة، وحتى الثورة في العلاقات الجنسيّة... لتصف في معظم الأحيان التغييرات المتعددة الجوانب في مختلف ميادين الحياة الثقافيّة»[2].

يقول غي روشيه: «إن التغيير الذي لا يؤثّر إلّا في عدد محدود من الأشخاص، لا يمكن أن يُعدّ نوعًا من التغيير الاجتماعي. بعبارة أخرى إنّ تغيير أفكار أو سلوك عدد محدود من أفراد المجتمع، لا يمكن أن يؤخذ على أنه تغيير اجتماعيّ، إلّا إذا كان تغيّر الأفكار، أو طريقة المواجهة والتلقي قد حدثت على مستوى واسع جدًّا... فالتغيير الاجتماعي هو أولاً وبالضرورة ظاهرة جَمَعية، بعبارة أخرى فإن التغيير الاجتماعي، يجب أن يغيّر الظروف المعيشية ونمط الحياة أو المجال الفكري والروحي لشريحة واسعة من المجتمع، أي أنْ

(1) تأليف جوليوس غولد، وويليام ل. كولب، من منشورات اليونيسكو، ترجمة 32 خبيرًا إيرانيًا متخصّصًا، ط. طهران، 1376ش [1997م].

(2) المصدر نفسه، ص 125.

يلحق التغيير عددًا كبيرًا من الأشخاص، وهذا مبدأ مهم لتشخيص أي تغيير اجتماعي. ثانيًا، يجب أن يكون أيّ تغيير اجتماعي تغييرًا بنيويًا أي تغييرًا يحدث في المؤسسة الاجتماعية كلها، أو في بعض أجزائها...

ويجب أن يبقى التغيير الاجتماعي ملاحظاً على مدى العصور، وأن لا يكون مؤقتًا سريع الزوال، بل يكون مؤثرًا في بنية المجتمع ومؤسساته الاجتماعية، وفي مجرى التاريخ»[1].

إن التغييرات والتحولات التي تطرّق إليها علماء الاجتماع السياسي والثوري، وذكرنا بعضها، من السهل معاينتها في ثورة الإسلام الشاملة، وفي الثورة الإسلامية الإيرانية اللتين يفصلهما عن بعضهما مسافة زمنية بلغت 1400 سنة. بالنسبة إلى ما سُمّيَ بالثورة في أزياء النساء: تجدر مراجعة ما جاء في سورة النور، والموقف من لباس المرأة في الثورتين...

في الوقت نفسه هنالك تغيير وتحوّل شاملان من الأدنى فالأعلى، كما يؤكد على ذلك أهم المؤرّخين الغربيين المعاصرين «ويل ديورانت»[2] وزوجته التي تمنَّت مثل هذا اللباس [الإسلامي]، للنساء في الولايات المتحدة: «ليت أبناءنا المنفلتين يرضوْن في عمرهم الطويل يومًا يُجبرون فيه على التقيّد بالمبادىء الأخلاقية والشرف المبتغى؛ وفي النهاية أنا أرى أن الحجاب أحبّ إلى القلب من العري»[3].

(1) **التغييرات الاجتماعية**، طهران، 1366ش [1987م]، ص 24، 26.
(2) هو ملحد، وقوله في هذا الموضوع حجّة قبل غيره.
(3) **دروس التاريخ**، ص 53، 54.

إنّ الثورة الإسلامية الإيرانية أهمُّ أحداث القرن العشرين السياسية، وأوسع وأعمق تغيير اجتماعي وثقافي لأيّ أمة من الأمم، وأهم حركة في التاريخ، أثّرت معطياتها ونتائجها وآثارها في مستقبل البشرية.

في أثناء هذه الثورة ومن خلال المسيرات الشعبية المليونية ارتقى الإنسان إلى أوج إنسانيته، وعرّج من خلال التحرر الثقافي بالمستوى نفسه إلى قمة الحياة الطيبة والمنزلة الرفيعة والعزّة والكرامة.

إنّ الإرادة الإلٰهية التي تسيّر التاريخ ونظام الوجود، وتريد رفعة المستضعفين، سَرَتْ فيضًا من نِعَم الإسلام الثمينة الطاهرة والتوفيق والتأييد، وقيَّض الله عزّ وجلّ لها إمامًا مضحيًا تقيًّا صالح العمل، وجّه الإيرانيين الثائرين على الطاغوت باتجاه الله، فقبضوا على دينهم الذي شكّل لهم قوّةً لا تُقهر، أسقطت عرش المستكبرين وتاجَهم.. ووضعت تاج العزة والفخار فوق رؤوس المظلومين.

في ليالي الصقيع الحالكة الظلمة في إيران، أطلّت الفطرة الإنسانية الحنيفية مشعلاً من أعماق وجود الشعب الإيراني المؤمن المجاهد لتنير الجباه العالية المؤمنة، جباه هذا الشعب الذي قرّر أن يقهر الظالمين والجبارين والعروش لتنال إيران استقلالها وعزّتها...

لقد اتحدت إرادة الله بإرادة الناس، فحدثت الشفاعة الحسنة التي سجّلت بنورها نقطة التغيير الأكثر ضياءً في التاريخ، بعد ثورة خاتم الأنبياء. لم تولد الأمّة من جديد، وإنما وُجدت من جديد وجودًا عُلُويًّا. أمةٌ استطاعت حين أدارت ظهرها للدنيا وثارت على الطاغوت وتحدّت الاستكبار العالمي بقطبيه الشرقي والغربي. أن تحطم الأصر والأغلال التي قيّدها بها الجبابرة طيلة قرون، دفعةً واحدةً؛ وفي لحظة من لحظات التاريخ المضيئة مزّقت حجب

الأوهام والأباطيل التي حشا المزورون أذهان الناس بها، فنالت حريتَها وعزّتها بالقوة من فم التنين.

في عملية الخلق المعنوي هذه، دخل ساحة التاريخ إنسان عالي الهمة عُلويّ الوجود، معرفًا الناس بثقافةٍ بدَت وكأنها جديدة بالنسبة إلى الذين كانوا يجهلون التاريخ الصحيح والولادة المعنوية.

لحظات مضيئة أعقبها الاستيقاظ من نوم الغفلة، والنظر في عمق التاريخ ومعنى الوجود، والأمل بالآخرة ـ الحياة بعد الموت الطبيعي ـ والإيمان بالعدل والقسط الإلٰهيّين، وبكرامة الإنسان وإمكانية حصوله على المنزلة الرفيعة في نظام الوجود، والتضحية بالنفس والإيثار، والهمّة للقيام بصالح الأعمال وبخدمة الخلق. اتساع الشخصية عموديًا في التاريخ وصولاً إلى خاتم الأنبياء وإلى آدم، وأفقيًا بسعة الجغرافيا الإنسانية.

لقد عَرَضَتْ الثورة الإسلامية الإيرانية منهجًا من الحياة الأخلاقية والمعتقدات وعلم الإناسة والكون التوحيديَّيْن على شعوب الأرض قاطبة. وهي بهذا الاعتبار الحلقة الأخيرة في سلسلة البعثات النبويّة والثورات التحرّرية الشاملة في التاريخ. إنّ الشعب الذي صنعها أراد من خلال رؤية وتربية خاصّتين، ومن خلال تغيير الأوضاع والظروف الاجتماعية والسياسية ومن خلال التخطيط والبرمجة، أن يحكم نفسه بنفسه وأن يفتح المحيطات الأربعة، ويُعيدَ الأمور إلى نصابها الصحيح في مسيرة الصلاح. فإذا هو وفّق في هذا العمل، فإنّ هذا التوفيق أو الفوز والفلاح سينعكس على الشعوب الأخرى والأجيال القادمة أسسًا وركائز وذخائر للحياة.

إن أيّ أمّة تريد في المستقبل أن تنال حريتها واستقلالها، وأن تتحرك في سبيل الارتقاء المعنوي والحياة الطيبة، ستعود إلى هذه

التجربة التاريخية وستراجعها، لتستمدَّ منها القوة ولتتخذها أنموذجًا يُحتذى.

إن شمس الثورة الإسلامية شعّت وتشع على مستقبل البشرية ومصيرها، وشكّلت نقطة تحوّل في حياة المستضعفين وشعوب العالم. وقد حملت على عاتقها مهمة ثقيلة ورسالة عظيمة: هي نشر رسالتها، وتعلّم القيم والمثل الإسلامية وعلم الإناسة والكون التوحيديّيْن، وتعليمها ونشرها.

تعلّم وتعليم دروس «الارتقاء المعنوي» و«الحياة الطيبة» وتكسير «الأصُر» و«الأغلال»، وتخطّي الأَسر والذلّ، والارتقاء إلى الحرّيّة والعزّة بأبعادها كلها...

وهذا هو معنى تصدير ثقافة الثورة، التي هي ثقافة الحرّيّة والاستقلال والرفعة والارتقاء في نظام الوجود، تصديرها إلى المجتمع الدولي، لنقترب من الهدف النهائي للثورة الذي هو صنع البرامج والمناهج للإنسانية بأسرها، والسير بالبشر باتجاه الحياة الطيّبة بوعيهم وقرارهم.

هنا تظهر ضرورة تعبئة علماء العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية وإعدادهم وتنظيمهم، للعمل على إعداد برامج التربية والارتقاء والصلاح للبشر أجمعين.

النضال والثورة السياسية:

فتحُ المحيط الاجتماعي:

إنّ النضال الذي هو الحلقة الثانية من حلقات الثورة الاجتماعية، هو التمرّد على المحيط الفاسد والمفسد لروحية الأفراد ولمعنوياتهم ومعتقداتهم وسلوكهم. ومن الممكن لبعض عوامل الخلل

في المحيط أن تؤثّر في بعض الأشخاص ولا تؤثر في الآخرين، حتى أن بعضها مفيد في سبيل التقرب: فالفقر والقوة مثلاً مفسدان للبعض ومفيدان ومصلحان للآخرين. من هنا ندرك أن تفاعُلَ عناصر المحيط مع إرادة الإنسان وشخصيته ينتج أثرًا أو آثارًا مختلفة، وقد أشار القرآن إلى التأثير السلبي للثروة والنعمة وما تتضمنه من مقدرة سياسية ومقدرة عسكرية: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤﴾[1]. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[2].

كما أن الفقر والمرض وساحة القتال ثلاثة من أوضاع المحيط التي يمكن أن تكون سببًا للانحراف العقيدي والأخلاقي، وعلى هذا الأساس، يمتدح القرآن الأشخاص الذين يقاومون ويتحملون في مثل هذه الظروف: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾[3] ... وفي سورة الفلق حذّر الله عزّ وجلّ من وسوسة شياطين الإنس والجنّ: شياطين الإنس الذين يبثّون سمومهم من خلال الإعلام: شياطين الباطل: الإذاعات والصحف والكتب والأفلام والمعارض ...إلخ والدفاع عن فلسفات الحياة الدنيوية الدنيّة لتضليل عامة الناس الغافلين والنائمين لصرفهم عن الجهاد: الجهاد من أجل التحرير، وجهاد النفس.

إن وسائل الإعلام هذه جعلت من الناس إما مترفين وإما مستهلَكين ومرضى نفسانيين، كما وصف أريك فروم المجتمع الأميركي... وأشاعت الأضاليلَ والاختراعاتِ وتحريف الحقائق عن

---

(1) سورة الإسراء: الآيتان 83 و84.

(2) سورة العلق: الآيتان 6 و7.

(3) سورة البقرة: الآية 177.

الأشخاص والمجموعات والدول التي لا تخضع لسلطة أسيادها المستكبرين وأعوانهم... لتسميم أفكار الناس وتضليل العامة، لإثارة الفتن بين عامة الناس، وهذا الدور نفسه الذي أدّاه المنافقون في صدر الإسلام...

ومن تأثيرات المحيط الاجتماعي السيئة رفاق السوء، الذين يأتي دورهم في الإفساد بعد العائلة، وقد حذَّر القرآن والنبي وإمام المتقين من رفاق السوء، ومن الحَمْقى. وأسوأ البيئات الاجتماعية هو النظام السياسي المبني على تسلط الحكام وخنوع الناس، لذلك قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[1]، و﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾[2].

أمّا من يحيا حياة إنسانية، ومن ارتقى في معارج الحياة الطيبة، فإنه يرفض المقام الذي وضعه فيه المجتمع المنحط، فيسعى إلى تغييره ومن هذه النقطة تبدأ الثورات الاجتماعية.

من هنا نرى أن الفصل بين شيء يسمى الحرّيّة وبين شيء آخر يسمى الثورة، إنما هو فصلٌ تعسّفي، فلا يمكن تصور إحداهما بدون الأخرى، ففي مفهوم أيّ حرية مهما كانت صغيرة ومحدودة يكمن معنى التغيير الشامل مهما صغُر وكان ضئيلاً.

كلما تحققت إحدى الحرّيّات في أحد الأفراد، معناها حدوث تغيير فيه له ماهية التحوّل الثوري. إنّ الثورة الشاملة تتشكل من اتحاد ألوف الآلاف من الأحداث المتكرّرة والمتشابهة التي تسمى الحرّيّة،

---

(1) سورة البقرة: الآية 256.

(2) سورة البقرة: الآية 257.

في مجرى الزمان وفي مجتمع معيّن. إن حدوث الحرّيّات المتنوعة، في كل عامل من العوامل الاجتماعية على حدَة، وتوسّعها في المجتمع بشكل يومي، تؤثر في تسريع مسار الثورة، وتعزّز القوة الثورية، التي تثمر قوىً سياسية ـ ثقافية في المجتمع تعمل لصالح الثوّار، ولإسقاط الحكام المتسلطين والطاغوتيين، فتساهم تاليًا في انتصار الثورة.

بعض الحرّيّات هي تغيير شامل يوجده الناس المتعاونون قلبًا وقالبًا، والذين تجمعهم الآلام والآمال المشتركة، والمتحدون بوعي وحساب وتخطيط في المحيط الاجتماعي وحتى في الساحة الدولية. الحرّيّة الوطنية المرادفة للاستقلال والمنعة وما ينتج عنهما من وجود فاعل في الساحة الدولية...

إنّ الأنبياء هم حَمَلَةُ راية الحرّيّة وروّادها؛ وبعثتهم ثورة تحريرية، و«القرآن» ـ رسالة الله ـ ودرس الحرّيّة والعزة وتعاليم الارتقاء المعنوي والحياة الطيبة، والعروج الإرادي والواعي نحو العالم العُلْوي، مبدأ الوجود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

يُستنبَط من هذه الآيات الأمرُ بعدم التبعية الثقافية ـ السياسية

---

(1) سورة آل عمران: الآية 104.

للمُضلّين، وبتكوين الحكومة التي هي تنظيم اجتماعي، وسياسي تضع القوانين التشريعية والتنفيذية والقضائية، وللحل والفصل في الخصومات والتي تدور كلها حول محور تعاليم القرآن أو تستند إليها.

إن للنظام السياسي التوحيدي ـ الوحياني ميزةً لا مثيلَ لها في أيّ نظام سياسيّ آخر، وهي أنَّ علم القانون أو العلم بالتكاليف الشرعية وتنفيذه كان عامًّا وغير منحصر بفريق اجتماعي خاصّ باسم الحكام، وهو نظام الإمامة العامة[1].

لذا فإنّ الإسلام، أبطلَ فرضيةَ تجزئة الناس إلى فريقين: الحاكم والمحكومين، والدليل على ذلك تعميم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

وهذه الولاية العامة، تُطلق أيضًا على إسقاط النظام الطاغوتي وإضعافه، مع ما يستلزم ذلك من مقاومة وصبر، وبالمشاركة السياسية كذلك في النظام التوحيدي المستقر؛ وكذلك في وضع القوانين المستمدّة من الأحكام الإلٰهية التي تتطلب تخصّصًا وتبحرًا علميَّيْن.

وقد وصف الإمام الحسين (ع) سلسلة حركته منذ رفضِه لبيعة يزيد وإلى آخر لحظات عمره الشريف في عاشوراء «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وما ذلك إلّا تنفيذًا لأمر الله عزّ وجلّ في الآية 157 من سورة الأعراف والآية 118 من سورة هود: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾. ففي جميع المجتمعات التي أشار إليها الله عزّ وجلّ وفي

---

(1) انظر: كتاب المؤلف «الولاية العامة».

الأجيال السابقة واللاحقة كانت الأكثرية تغرق في أوحال الحياة الدنيا، وفي «التبعية» للعلائق الدنيّة أسيرةً ذليلةً للأشياء والسلع... إلّا أقليّة ثورية مجاهدة، وهبَها الله «النجاة» ووضع عنها «الأُصر والأغلال»، فسيطرت على محيطها الداخلي، وكسّرت نيرَ الطاغوت وسياسته (الإفساد في الأرض).

وأخيرًا أدعو دعاء الإمام السجاد (ع):

بسم الله الذي لا أرجو إلّا فضلَه، ولا أخشى إلّا عَدْلَه ولا أعتمد إلَّا قولَه، ولا أتمسّك إلّا بحبلِه... وأعوذ بك يا رَبُّ من همزات الشياطين، وأحترِزُ بسلطانك من جَوْرِ السلاطين... وأختم بالانقطاع إليك أمري، وبالمغفرة عمري، إنك أنتَ الغفورُ الرحيم...